Bayburt Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi /
Journal of Divinity Faculty of Bayburt University
ISSN 2148-6700 / e-ISSN 2630-595X
Sayı: 10 2019/2- Aralık

Çağdaş Mısır Şiirinde Osmanli Hilafeti İçin Yazılan Mersiye

The Lamenttations of the Ottomtman Caliphate in Modern Egyptian Poetry

رِثَاءُ الخِلافَةِ العُثمانيّةِ فِي الشِّعْرِ المِصْرِيِّ الحَدِيثِ

Abdelkarim Amin Mohamed Soliman
Dr. Dokuz Eylül Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Arap Dili ve Belağatı Anabilim Dalı, İzmir / Türkiye
PhD., Dokuz Eylül University Faculty of Divinity, Department of Arabic Language and Rhetoric. İzmir/Turkey
abdelkarim.soliman@deu.edu.tr

ORCİD ID: 0000-0003-2999-1031

Makale Bilgisi / Article Information
Makale Türü / Article Type: Araştırma Makalesi / Research Article
Geliş Tarihi / Date Received: 14 Ekim / October 2019
Kabul Tarihi / Date Accepted: 24 Aralık / December 2019
Yayın Sezonu / Pub Date Season: Aralık / December

Atıf / Citation: Abdelkarim Amin Mohamed Soliman "Çağdaş Misir Şiirinde Osmanli Hilafeti İçin Yazilan Mersiye. *Bayburt Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi,* 10 (Güz) 2019) : 33-62

Öz

Mersiye sanatı, özellikle de şehirler ve ülkeler hakkında yazılan mersiyeler, asaleti, doğruluğu ve söz olarak Arapça şiir sanatında en doğru olanıdır. Çünkü mersiyelerde onu yazmak üzere ruhsal nedenler ve asıl dürtüler bulunmaktadır. Aynı şekilde mersiyelerde Arap ve İslami tarihi açısından hatta insanlık tarihi boyunca birçok tecrübe hüzünlü olaylar gerçekleşmektedir. Çünkü mersiyelerde anlatılan şehirler ve ülkelerin düşmesi gibi olaylar, Müslümanların zihinlerinde canlarını en çok yakan, en çok etkileyen ve kabiliyetli olanların yeteneklerini heyacanlandırıp harekete geçirmektedir. Tarihte Endülüs, Bağdat ve Abbasi hilafetin yaşadıkları, yeni çağda da Filistin ve Osmanlı hilafetiyle gerçekleşen olaylar bunun en güzel görüntüsü ve delilidir. Şüphesiz ki İslam tarihinde yaşanmış acılar ve yaslar, geçmişte ve günümüzde şiir ve şairlere, ilham veren örnekler sunmaktadır.

Bu çalışma Osmanlı hilafeti döneminde bazı şehirlerinin düşmesine dair söylenen mersiyeleri içermektedir. Çalışmamız mukaddime ile beş bölümden oluşmaktadır. 1- Mısırlı şairlerinin dini eğilimi. 2-Sultan II Abulhamid hakkında mersiye. 3-Edirne mersiyesi. 4-Ayasofya mersiyesi 5-Osmanlı hilafetinin sona erdirilmesi ve şairlerin onun için söylediği mersiyeleri.

Anahtar kelimeler: Yas, Şiirlerde Osmanlı Hilafeti, Çağdaş Mısır Şiiri, Abdulhamit

الملَخّص

يُعدُّ فَنُّ الرِّثَاءِ، وخَاصَّةً رِثَاءَ المُدُنِ والممَالِكِ مِن أَكْثَرِ فُنُونِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ قَولاً وصِدْقاً وأَصَالَةً، حَيثُ تَتَوفَّرُ لَهُ الدَّوَافِعُ النَّفْسِيَّةُ والحَوَافِزُ الإبدَاعِيَّةُ لِكِتَابَتِهِ، وكَذَالِكَ تَتَحَقَّقُ لَهُ وَفْرَةٌ فِي التَّجَارِبِ والأَحْدَاثِ المُتَلاحِقَةِ والمأْسَوِيَّةِ عَبْرَ التَّارِيخِ العَرَبِيِّ والإسلامِيِّ بل والإنسانِيّ، فَسُقُوطُ المُدُنِ والممَالِكِ مِن أَكثَرِ الأَحدَاثِ العَالِقَةِ فِي أَذْهَانِ المسلِمِينَ، وأَشَدِّها إيلاماً لأنفُسِهِم، وتَأْثِيراً فِيهِم، وتَهْيِيجاً لِمَلَكَاتِ المبدِعِينَ مِنهم، وما حَدَثَ قَدِيماً لِلأَنْدَلُسِ ومَمَالِكِها، وبَغْدَادَ وخِلافَتِها، وحَدِيثاً لِفِلسطِينَ والخِلافةِ العُثمانِيَّةِ خَيرُ شَاهِدٍ ودَلِيلٍ، فقد مَثَّلَت هَذِهِ المآسِي الإسلامِيَّةُ وما زَالتْ مَادَّةً خِصبَةً لِلشِّعرِ والشّعراءِ.

وتَتَنَاوَلُ هَذِهِ الدِّراسَةُ شِعرَ الرِّثَاءِ الذِّي قِيلَ فِي سُقُوطِ الخِلافةِ العُثمانِيَّةِ وبعضِ مُدُنِها، وقَد جَاءتِ الدِّراسَةُ فِي مُقَدِّمَةٍ وخَمْسَةِ مَبَاحث، ١- وهِيَ:النَّزعَةُ الدِّينِيَّةُ لِلشُّعراءِ المصريين ٢- رِثَاءُ السُّلطانِ عَبدِالحَمِيدِ الثَّانِي.٣- رِثَاءُ أَدِرْنَةَ. ٤- رِثَاءُ آيَاصُوفْيَا. ٥- إلغاءُ الخلافةِ العُثمانِيَّةِ ورِثَاءُ الشُّعراءِ لَها.

الكَلِمَاتُ المِفْتَاحِيَّةُ: رِثَاء ، الخِلافَةُ العُثمانِيَّةُ فِي الشِّعر، الشِّعرُ المِصرِيُّ الحَدِيثُ.

Abstract

Elegies and elegiac poetry, especially that dedicated for cities and kingdoms, isone of the most prolific and authentic works of Arabic poetry. It has the psychological motivations and creative incentives necessary for writing it, as well as an abundance of successive and tragic experiences and events in the Arab, Islamic and even the human history as a whole. The fall of kingdoms and cities is one of the most memorable events in the minds of Muslims, and one the most effective and painful experiences to them as well. Moreover, it ignites the flames of creativity in the souls of their artists. What happened to ancient Andalusia and its kingdoms, Baghdad and its caliphate, and modern Palestine and the Ottoman caliphate is the best witness and evidence. These tragedies have represented and still do a fertile material for poetry and poets.

This study tackles elegies and elegiac poetry, which was said in the fall of the Ottoman caliphate and some of its cities. The study came in introduction and five topics: 1- the religious orientation of the Egyptian poets.2- lamentations of sultan Abdulhamid 11.3- lamentations of Adirna.4- lamentations of Ayasofia.5- the fall of the Ottoman caliphate and lamentations of poets for it.

Keywords: Elegiac poetry, Ottoman caliphate, poetry, Modern Egyptian poetry, Abdulhamit

المُقَدِّمَةُ:

مَثَّلَ فنُ رِثَاءِ المدُن والممَالِكِ ظَاهِرَةً فَنِيّةً بَارِزَةً فِي الشِّعرِ العَرَبِيِّ مَعَ سُقُوطِ المدُنِ الإسلاميّةِ في أيدي أَعدَائها مِن أَهلِ الشَّرقِ والغَربِ، ومَعَ سُقوطِ دُولٍ سِياسيّةٍ وقِيامِ أُخرَى، وهَذَا الفَنُّ الشِّعرِيُّ لونٌ منَ التَّعبيرِ يعكِسُ طَبِيعَةَ التَّقلُّباتِ السِّياسيَّةِ التي تجتاحُ عُصُورَ الحُكمِ في مَرَاحِلَ مختلفِة.

وقد احتلَّ رثاءُ المدُنِ في الشِّعرِ العربيّ الحَديثِ مِسَاحَةً وَاسِعَةً ومُهِمَّةً نَتِيجَةً لِتَرَدِّي الوَاقِعِ السِّياسِيِّ لِلبِلادِ العَربيّةِ ولِلأُمَّةِ الإسلاميّةِ، إذ ضَعُفَتِ الدَّوْلَةُ العثمَانيّةُ فِي أَوَاخِرِ عَهدِها، وبَادَتْ عَاجِزَةً عن حِمَايَةِ وِلَايَاتِها ضِدَّ أَطمَاعِ الغَربِ الذّي قَامَ بِغَزوٍ واحتِلالٍ لِمُعظَمِ الوِلاياتِ العثمَانيَّةِ العَرَبيّةِ وغَيرِ العَربيّةِ، لَيسَ هَذَا فَحَسب بَل قَامَ هذا المحتَلُّ بِتمليكِ فِلسطِين لِليَهُودِ وجَعلِها وَطَناً لِلكَيَانِ الصّهيونيِّ، وقد تَكَلَّلَ نَجَاحُ الغَربِ في سَيطَرَتِهِ عَلَى العَالَمِ الإسلاميّ بِسُقُوطِ الخِلافَةِ العثمانيّةِ، وفُقدَانِ القِيَادَةِ الرُّوحِيّةِ التي كَانَ يمكِنُ لَهَا تَوحِيدُ الصّفِّ الإسلاميّ ضِدَّ أطماعِ الغَربِ التي لا تَتَوَقّفُ، وقد أَثَّرت هذه المِحنُ وتلك النَّكباتُ شعرَ رثاءِ المدنِ، وأَعَادَت إلى الأَذهَانِ نَكبَةَ الأَندَلُسِ وأُفُولَ نَجمِ المسلِمِينَ، فَأَحَذَت أَقلامُ شُعَرَاءِ مَدرَسَةِ الإحيَاءِ والبَعثِ، وما تَلاها تَتَنَاوَلُ تِلْكَ النَّكَبَاتِ وتُصَوِّرُ تِلْكَ المآسِي، وتحذِّرُ مِن أَخطَارِ ذَلِكَ فِي المستقبَلِ.

وتَنَاوُلِي لِهذا الموضوعِ هو تَنَاوُلٌ أَدَبِيٌّ في المقَامِ الأَوَّلِ، لِذَلِكَ حَاوَلتُ أَنْ أَتَجَنَّبَ الخَوضَ في عَرضِ وتحلِيلِ بَعضِ الأحداثِ التَّارِيخِيّةِ، والمَوَاقِفِ والخِلافَاتِ السِّياسيّةِ، وما جاءَ في الدّراسَةِ من عَرضٍ وتحليلٍ إنّما هو لهؤلاءِ الشُّعراءِ، فَمَقصَدِي الأساسيُّ مِنَ الدِراسةِ يَهدِفُ إلى تَحقِيقِ أمرَينِ، الأَوَّلُ: فَنِيٌّ وهو جمعٌ وتحليلٌ لِشعرِ الرِّثاءِ الذِّي قِيلَ في سُقوطِ الخِلافَةِ العُثمانيّةِ وسُقُوطِ بَعضِ مُدُنِها في أَيدِي الغَربِ، والآخرُ: مَعْرِفِيٌّ وهو التَّأكِيدُ على وَفَاءِ العَرَبِ-في غَالِبِيَّتِهِم- لِلخِلافَةِ العُثمانيَّةِ، وتَمَسُّكِهِم بِها، ودِفَاعِهِم عَنْها، فَمَا كَانَ لِلدَّولَةِ العُثمانيَّةِ أَنْ تَحْكُمَ العَرَبَ لِمُدَّةِ أَرْبَعَةِ قُرُونٍ لو لَمْ تَكُنِ العِلاقَةُ طَبِيعيَّةً ومَبنيّةً على المفهُومِ الإسلاميّ الجَامِعِ لِلخِلافَةِ. فالعَرَبُ لَمْ يَنظُرُوا إلى الدّولَةِ العُثمانيّةِ كَدولَةٍ غَازِيَةٍ أو مُحْتَلَّةٍ كَمَا يَزْعُمُ المغرِضُونَ، بل نَظَرُوا إلَيهِم كإخوَةٍ في الدِّينِ فامتَثَلُوا لَهُم ودَخَلُوا تَحْتَ حُكمِهِم،" فإنَّ التَّعْلِيلَ الصَّحِيحَ لِخُضُوعِ العَرَبِ لِحُكْمِ الأَتراكِ مَاثِلٌ في الفِكْرَةِ الدِّينيّةِ، فقد سَرَى في ذِهْنِ العَرَبِ من أَبنَاءِ هَذِهِ الأَقْطَارِ أَنَّ فِي تَأْيِيدِ السُّلْطَانِ الجَدِيدِ تَأْيِيداً لِلإسلامِ وهُوَ خَادِمُهُ ونَاصِرُهُ، وإعلاءً لِشَأْنِ الشَّرِيعَةِ وهُوَ حَامِيها ومُؤَيِّدُها، وجَمعاً لِلكَلِمَةِ وهُوَ مِمَّا يَأْمُرُ بِهِ الدِّينُ ويَحُضُّ عَلَيهِ فَالتَفُّوا، حَولَهُ وسَارُوا تَحتَ عَلَمِهِ، وبَايَعُوهُ سَيِّداً وإمَاماً"[1]

أمّا عَنِ الدِّرَاسَاتِ السَّابِقَةِ، فَلم أَجِد مِن خِلالِ بَحثِي دِرَاسَةً مُستَقِلَّةً تَناوَلَت شِعرَ الرِّثاءِ الذّي نُظِمَ في الخِلافَةِ العُثمانيّةِ أو مُدُنِها، إنّما هُناكَ بَعضُ الدّرَاسَاتِ التي أَشَارَت إلى هذا الملمَحِ الشّعرِيِّ من خِلالِ تَنَاولِها لِشِعرِ بَعضِ الشُّعراءِ، ومنها:

١- الاتّجَاهَاتُ الوَطَنيّةُ في الأَدَبِ المعاصِرِ،للدّكتور، محمد محمد حسين.

٢- إسلامِيّاتُ أحمد شوقي دِراسةٌ نقديّةٌ، للدّكتورة، سُعاد عبدالوهّاب.

٣- شَاعِرُ العُرُوبَةِ والإسلامِ أحمد مُحَرَّم، للدّكتور، محمد إبراهيم الجُيُوشيّ.

أوّلاً: النَّزعَةُ الدّينيَّةُ لِلشُّعراءِ المِصريينَ:

شَهِدَت نِهَايَاتُ الدَّولَةِ العُثمَانيَّةِ أَحدَاثاً مُتَسَارِعَةً ومِفْصَلِيَّةً كَانَ لَها أَثرٌ بَالِغٌ فِي تَشكِيلِ الوَجْهِ السِّيَاسِيّ والدّينِيّ لِلمَنطِقَةِ إلى حَدٍّ كَبِيرٍ، فَمِن استلامِ السُّلطَانِ عَبدِالحَمِيدِ الثّانِي لِكُرسِي الخِلافَةِ ومُحَاوَلَتِهِ لإعَادَةِ إحيَاءِ الرّجلِ المرِيضِ، إلى الحَربِ اليُونَانيّةِ والقَضِيّةِ الأَرْمِينِيّةِ، وإعلانِ المشْرُوطِيّةِ(الدّيمقراطيّة) ثُمَّ إلغَائِها، وما تلى ذلك من أحداثٍ وتَوَتُّرَاتٍ أَدَّت إلى عَزلِ عَبدِالحَمِيدِ الثّانِي مِن عَلَى سَرِيرِ الخِلافَةِ وتَعيِينِ أَخِيهِ مُحَمّد رَشَاد سُلطاناً لِلدَّولة، وما تَلَى ذَلِكَ مِن أَحدَاثٍ ووَقَائِعَ،أَهَمُّها دُخُولُ الدَّولَةِ العُثمَانيَّةِ فِي

[1]- أمين سعيد، الثّورةُ العَرَبيّةُ الكُبرى، القاهرة، مكتبة مدبولي، د ت،المجلّد الأوّل، ص٩

الحَربِ العَالَمِيّة الأُولَى وفُقدَانُها السَّيطَرَة على الشَّامِ والعِراقِ مِمَّا أَفقَدَها بُعدَها العَرَبِيّ، ثمَّ قِيَامُ ثَورَةِ الأَنَاضُولِ التي قَادَها أَتَاتُورك ضِدَّ القُوَى الغَربِيّة وتَأسِيسُ حُكُومَةٍ أَنقَرَةَ، وأَخِيراً إلغاءُ الخِلافَةِ.

وقد كان لهذه الأحداث الهامّةِ والمتلاحِقَةِ أثرُها البالغ على الحَيَاةِ المصريّةِ، فقد كانت مصر تمرُّ بِحالةٍ منَ النَّهضَةِ الفكريّةِ في مُختلفِ المجالات، وقد اصطبغت هذه النّهضةُ بالنّزعة الإسلاميّةِ التي أخذت تتّسعُ لِتشمَلَ أرجاءَ الأُمّةِ العربيّةِ، وقد جمعت هذه النّزعة الإسلاميّةُ بينَ كُتّابِ مِصرَ وقاداتِها ومُفكّريها، ومن يُطالِعْ الخِطَابَاتِ السّياسيَّةَ أو المَنْثوراتِ الأدبيّةَ أو القصائدَ الشّعريّةَ يَهُولُهُ غَزَارَةُ الكِتَاباتِ التي شاركت في أتراحِ الأُمّةِ وأفراحِها المتَعلّقةِ بالقضايا الإسلاميّةِ وعلى رأسِها الخَلِيفَةُ والخِلافةُ وأهمّيّةُ الحِفاظِ عليهما فَمِنَ السّياسيين يقولُ مصطفى كامل(٢) مثلا:" أمّا واجبُ العثمانيينَ والمسلمين أمامَ عَدَاوَةٍ إنجلترا لِلدّولةِ العليّةِ فَبَيِّنٌ لا يُنكِرُهُ إلّا الخَوَنَةُ والخَوَارِجُ والدُّخَلاءُ؛ فواجبُ العثمانيينَ أنْ يجتمعوا جميعاً حَولَ رايةِ السَّلطَنَةِ السّنِيّةِ وأنْ يُدافعوا عن مُلكِ بلادِهم بكلِّ قُوَاهم...وواجبُ المسلمين أنْ يلتفوا حولَ رايةِ الخلافةِ الإسلاميّةِ المقدَّسةِ، وأنْ يُعزّزوها بالأموالِ والأرواحِ ففي حفظِها حِفظُ كرامتِهم وشرفِهم، وفي بقاء مَجدِها رِفعَتُهُم ورفعَةُ العقيدَةِ الإسلاميّةِ"(٣)، ويكتب المناضل المصريّ محمد فريد(٤) كتاباً عنِ الدَّولَةِ العُثمَانيَّةِ بِعنوانِ(تاريخ الدَّولةِ العليّةِ العثمانيّة) يُسَجِّلُ فِيهِ دَورَ الخِلافَةِ العُثمَانيَّةِ فِي الحِفَاظِ عَلَى وحدَةِ المسلِمِينَ وجِهَادَها ضِدّ المطَامِعِ الأُوربيّة، ويُعلِنُ فِيهِ مُنَاصَرَةَ السّيَاسِيينَ المِصرِيينَ لِلدَّولَةِ العُثمَانيَّةِ،ويَقُولُ:" إنَّ الملكَ العثمانيَّ قد لَمَّ شَعثَ الولاياتِ الإسلاميّةِ وردَّ السَّيطَرَةَ الإسلامِيّة، عَلَى إثر ذَلِكَ قَامَت قِيَامَةُ التّعصُّبِ الدِّينِيِّ فِي المَمَالِكِ الأُورُوبيّةِ، واتَّفَقَت عَلَى احتَلافِها وتَوَحَّدَت عَلَى تَعَدُّدِها وانسَابَت عَلَى الملكِ العُثمَانِيِّ فَأَخَذَت تُحَارِبُهُ مَثْنى وثُلاثَ ورُبَاعَ لِتَقْوِيضِ عَرشِهِ ورَدِّهِ إلى مَهدِهِ الأَوَّلِ..فلمّا كَانَت هَذِهِ الدَولةُ قد وَقَفَت نَفْسَها لِلذَّبِّ عَن حُرِّيّةِ الشَّرقِ والذَّودِ عَن حَوضِهِ، ولما كَانَت هِيَ الحَامِيَةُ لِبيضَةِ الإسلامِ زَمَاناً طَوِيلاً..رَأَيْتُ مِنَ الوَاجِبِ عَلَيَّ خِدمَةً لِلحَقِيقَةِ ونَفْعاً لأبنَاءِ البِلادِ، أنْ أُدَوِّنَ هذا التّاريخَ...رَاجِياً مِنهُ تَعَالَى أَنْ يُوفِّقَنِي لِخِدمَةِ الوَطَنِ ونَفْعِ بَنِيهِ وأَنْ يُدِيمَ ويُؤَكِّدَ مَا بَينَ مِصرِنا والدّولَةِ العَلِيّةِ مِنَ الرَّوابِطِ" (٥)

ومِنَ المصلِحِينَ ورِجَالِ الدّينِ يَقُولُ مُحَمَّدُ عَبْدُه(٦)–على سَبِيلِ المِثَالِ–:"إنّ مَن لَهُ قَلبٌ مِن أَهلِ الدِّينِ الإسلاميِّ يَرَى أنَّ المحَافظَةَ على الدَّولَةِ العَلِيَّةِ العُثمَانِيَة ثَالِثَةُ العَقَائدِ بعدَ الإيمانِ باللهِ ورسولِهِ، فإنّها وحدها المحافِظَةُ على سلطان الدينِ، الكافلةُ لِبقاءِ حوزَتِهِ، وليس للدّينِ سلطانٌ في سواها، وإنّا والحَمدُ للهِ عَلَى هَذِهِ العَقِيدَةِ، عَلَيها نَحيا وعَلَيها نَمُوتُ"٧، ويُهاجمُ الأديبُ والسّيَاسِيُّ

٢– مصطفى كامل باشا: زعيم سياسي وكاتب مصري، ولد سنة١٢٩١هـ/١٨٧٤م،أسّس الحزب الوطني وجريدة اللواء،كان من المنادين بإنشاء الجامعة الإسلامية، وكان من أكبر المناهضين للاستعمار، وعُرِفَ بدوره الكبير في مجالات النهضة مثل نشر التعليم وإنشاء الجامعة الوطنية، وكان حزبه ينادي برابطة أوثق بالدولة العثمانية، أدت مجهوداته في فضح جرائم الاحتلال والتنديد بها في المحافل الدولية خاصَّةً بعد مذبحة دنشواي التي أدَّت إلى سقوط اللُّورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر، تُوفِّي شاباً بسببِ المرضِ سنة١٣٢٠هـ/١٩٠٨م.

٣– مصطفى كامل، المسألةُ الشَّرْقِيَّةُ، القاهرة، مؤسسة هنداوي،طبعة ٢٠١٤م، ص٢٠

٤– محمد فريد بك (١٨٦٨–١٩١٩ م) محام و مؤرخ معروف و أحد كبار الزعماء الوطنيين بمصر، ترأس الحزب الوطني بعد وفاة مصطفى كامل. أنفق ثروته في سبيل القضية المصرية. من أشهر ما كتب: "تاريخ الدولة العثمانية."

٥– محمد فريد، تاريخ الدَّولة العليّة العثمانية، تحقيق، إحسان حقي، القاهرة، دار النفائس، ١٩٨١الطبعة الأولى، ١٩٨١م، ص١٨–١٩

٦– الإمام محمد عبده، مفتي الدِّيار المصريّةِ، ولد في محافظة البحيرة سنة١٢٦٦هـ/١٨٤٩م، درس بالأزهر، ودرس فيه وفي دار العلوم، من أهم تلاميذ جمال الدين الأفغاني، اشترك معه في تأسيس جريدة العروة الوثقى، سافر إلى كثير من الدول الأوربية والأسلامية، من دعاة التجديد الفكري، له أعملا كثيرة من أهمها تفسير القرآن، توفي سنة١٣٢٣هـ/١٩٠٥م.

٧– محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده، القاهرة، دار الفضيلة، الطبعة الثانية ٢٠٠٦م، ج١ص٩٠٩

عَبدُاللهِ النَّدِيم([٨]) بَعضَ الذَّينَ يَنتَقِدُونَ الدَّولَةَ العُثمَانِيَّةَ مِمّن تَأَثَّرُوا بِالفِكرِ الغَربِيِّ الحَاقِدِ عَلَى المسلِمِينَ وخِلافَتِهِم، فَيَقُولُ:"إنّنا نَرَى كَثِيراً مِنَ المغَفَّلِينَ الذِّينَ حَنَّكَتْهُم قَوَابِلُهم بِاسِمِ أُورُوبَّا يَذُمُّون الدّولَةَ العَلِيَّةَ ويَرمُونَها بِالعَجزِ، وعَدَمِ التَّبَصُّرِ وسُوءِ الإدَارَةِ وقَسْوَةِ الأَحكَامِ، ولَو أَنصَفُوا لَقَالُوا أنّها أَعظَمُ ثَبَاتاً، وأَحسَنُها تَبَصُّراً وأَقوَاها عَزِيمَةً، فإنّها فِي نُقْطَةٍ يَنصَبُ إليها تَيَّارُ أُورُوبَّا العُدوَانِي"([٩]).

أمّا عن الشعراء فقد كانت النّزعةُ الدِّينيَّةُ سائدةً عندَ شُعَراءِ هَذِهِ المرحَلَةِ فَمَن يُقَلِّبْ صفحاتِ دِيوانِ أيِّ شَاعرٍيَجِدْهُ "لا يَخلُو دِيَوانٌ مِن شِعرٍ فِي مَدحِ الخَلِيفَةِ التُّركِيّ، والإشادَةِ بِفَضلِهِ على المسلمينَ وحِرصِهِ عَلَى إعلاءِ كَلِمَةِ الدِّينِ، وليسَ فيهم مَن تَخَلَّفَ عَنِ المشارَكَةِ بِشِعرِهِ فِي حُرُوبِ تركيا وأَحدَاثِها الجِسَامِ، مثل حُرُوبِ اليُونَانِ وحَربِ طَرَابلس وحَربِ البلقانِ، والدُّستورِ العثمانيِّ وسُقُوطِ عبدِالحَمِيدِ.وهُم يَرونَ أنَّ الخليفةَ هو الجَامِعُ لِشَملِ المسلمينَ، وأنّه حِينَ يُحارِبُ دِفَاعاً عَنِ الإسلامِ وتَمَسُّكاً بإعلاءِ كلمتِهِ بينَ الدّولِ التي تَتَرَبَّصُ بِهِ، مُحذِّرين مِنَ الإصغَاءِ إلى دَعوَةِ التَّفرِقَةِ التي لا تُصيبُ الأُممَ الإسلاميَّةَ جَمِيعاً إلا بالشَّرِّ"([١٠])

وقد كان الواقعُ وتغيراتُهُ العالميّةُ هي الدَّافعُ الأكبرُ لاتِّخاذِ الشُّعراءِ المصريين هذا الموقفَ، فقد كانتِ الأحداثُ السياسيّةُ، ومطامِعُ الدُّولِ الأُوربيّةِ في العالمِ العربيِّ والإسلاميِّ تُلزِمُ الشّعَرَاءَ المِصريين الوَطَنِيينَ أَنْ يَربِطُوا بينَ الإسلامِ وتركيا هذا الرّبطَ، ولم يكونوا ليستطيعوا أنْ ينحازوا عنِ الخلافةِ الإسلاميةِ، أو عن تركيا وهم يعلمون أنّها الجامعة للدُّول الإسلاميّةِ، وهم يرون – أيضا– أنّ الدُّولَ الغربيّةَ تَتَلَهَّفُ على تَمزِيقِ الخلافةِ الإسلاميّةِ واحتلالِ ولايتِها. والملامِحُ الدّينيّةُ في الشّعرِ المِصريِّ الحَدِيثِ مُتَعَدِّدةٌ، اخترتُ مِنها مَلمَحَينِ يَرتَبِطَان بِوُجُودِ الخِلافَةِ ارتِبَاطاً وَثِيقاً، أوّلُهما: إعلانُ الوَلاءِ للسُّلطانِ العُثمانيِّ ومُناصَرَتُهُ، والآخَرُ: رَفْضُ الحَرَكَاتِ الانفِصَالِيّةِ عَنِ الخِلافَةِ العُثمانيّةِ.

١- إعلانُ الوَلاءِ للسُّلطانِ العُثمانيِّ ومُناصَرَتُهُ:

وقد ساعدت شخصيةُ السُّلطانِ عبدالحميدِ الثّاني الشُّعراءَ على اتِّخاذِ هذا المسلكِ الإسلاميّ وصبغِ أشعارِهم به، لِما تَمَيَّزَ به السُّلطانُ مِن مُيُولٍ إسلاميّةٍ ورَغبَةٍ حَقِيقيّةٍ فِي تَوحِيدِ الصَّفِّ الإسلاميِّ عن طَرِيقِ دَعوَتِهِ إلى الجَامِعَةِ الإسلاميّةِ، وشعَارِهِ الشَّهيرِ(يا مُسلمي العالمِ اتّحدوا)، فقد لاقَتْ هَذِهِ الدّعوَةُ وذَلِكَ الشّعارُ هوًى فِي نُفُوسِ المِصْرِيينَ، فَأَخَذَت حَنَاجِرُ الشُّعراءِ تَصْدَحُ بها داعيةً إخوانهم المسلمينَ فِي كلِّ مَكَانٍ إلى ضَرُورَةِ الوِحدةِ والالتِفَافِ حَولَ السُّلطانِ عَبدِالحَمِيدِ وحَولَ تركيا، يقولُ شوقي([١١]):

رَضِي المُسْلِمُونَ والإسلامُ	فَزَعَ عُثمانَ–دُمْ– فَدَاكَ الدَّوَامُ
إيهٍ عَبدَالحَمِيدِ جَلَّ زَمَانٌ	أنتَ فيهِ خَلِيفَةٌ وإمَامُ
عُمَرُ أنتَ، بَيدَ أَنَّكَ ظِلٌّ	لِلْبَرَايا وعِصْمَةٌ وسَلامُ
ما تَتَوَّجْتَ بِالخِلافَةِ حَتَّى	تُوِّجَ البَائسُونَ والأيتَامُ

[٨]– عبدالله النديم، هوعبدالله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسى الشهير بعبدالله النديم الذى كان مولده يوم عيد الأضحى المبارك عام ١٢٦١هـ، ١٨٤٥ م بمدينة الإسكندرية بشمال مصر، كاتب وأديب وشاعر وخطيب وسياسيّ، لُقِّبَ بخطيب الثورة العرابيّة، حُبس ثم نُفيَ، له الكثير من المؤلفات والمجلات الساخرة ذات النقد السياسي والاجتماعي، أهمها: التّبكيت والتنكيت، الأستاذ، والطائف، تُوُفِّيَ سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م.

[٩]– سلافة النديم في مُنتخباتِ السَّيِّد عبدالله النَّديم،٢: ٦١، مجلة الأستاذ، عدد١٧، يناير سنة ١٨٩٤م.

[١٠]– محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الشعر المصري، القاهرة، مكتبة الآداب، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠، ج١،ص١٢

[١١]– أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي، وُلِدَ سنة١٢٨٥هـ/١٨٦٨م، جذوره متعدّدةُ الأعراقِ، أهمُ شعراءِ مدرسة الإحياء والبعث، بل أهمّتَ شاعرٍ عربيٍّ في العصر الحديث، لذلك لُقِبَ بأميرِ الشُّعراء، درس في مصر، ودرس الحقوق وفي فرنسا، شارك في كُلِّ القضايا الوطنيّة والإسلاميّة، نُفِيَ خارج مصر إلى أسبانيا، له ديوان شعر كبير باسم(الشوقيات)، وعدد من الروايات والمسرحيات الشعرية، تُوفّشي بالقاهرة سنة ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.

ولأنتَ الذِّي رَعِيَّتُهُ الأُسْدُ ومَسْرَى ظِلالِها الآجامُ

أُمّةُ التُّركِ والعِرَاقُ وأَهْـلُو هـ ولُبْنَانُ والرُّبَى والخِيَامُ

عَالَمٌ لَـمْ يَكُنْ لِيُنْظَمَ لَولا أَنَّكَ السِّلْمُ وَسْطَهُ والوِئـامُ[١٢]

ويَجْعَلُ أحمد مُحَرَّم [١٣] الحُكْمَ العُثْمانيَّ نَسَباً يَرْبِطُ بينَ العربيِّ والتُّركيِّ،فيقولُ:

يا آلَ عُثمانَ مِن تُركٍ ومِن عَرَبٍ وأيَّ شَعْبٍ يُسَاوي التُّرْكَ والعَرَبا

صُونُوا الهِلالَ وزِيدوا مَجْدَهُ عِلْماً لا مَجْدَ مِن بَعْدِهِ إنْ ضاعَ أوذَهَبا

ويَرْتَقي الشَّاعِرُ عن تِلكَ النّزَعَاتِ العِرقِيَّةِ البَغِيضَةِ التي بَدَت عِلَّةً تَفُتُّ في عَضُدِ الأمَّةِ وتُوهِنُ جَسَدَها، وتَفْصِمُ عُرَى وحْدَتِها، فيفتَخِرُ بِبَني عثمانَ بِضَمِيرِ الجَمْعِ، فلا فَرقَ بينَ التُّركِ والعَرَبِ فَكُلُّهم يَدينون بعقِيدةِ التَّوحيدِ،وكُلُّهم يَسْتَظِلُّون بِرَايَةٍ واحدةٍ، ويُحاكِمٍ واحدٍ، يقولُ:

إنَّا بَنِي عثمانَ أَعلامُ الوَرَى والأرضُ تَشْرفُ فوقَها الأعلامُ

إنّا السّنامُ إذا الأنامُ تَفَاخَرَت والنَّاسُ فِيهِمُ مَنْسَمٌ وسنَامُ[١٤]

ا اهتمَّ الشُّعراءُ كثيرا بشخصيَّةِ الخليفةِ، وقد مَثَّلَ ذَلِكَ ذَكَاءً كَبِيراً نَظَراً لاختلافِ العِرقِ، ولِمَوضُوعيَّةِ الرَّدِّ عَلَى المغرضين على الخِلافَةِ مِن دَاخِلِ الخِلافَةِ ومِن خَارِجِها، لذا توجَّه الشُّعراء إلى شخصيَّةِ الخليفةِ العثمانيّ بالاحترامِ والتَّبجيلِ، وإلى الخلافة بالقداسةِ، فمازالتِ الحروبُ الصَّليبيَّةُ في أذهانِ المصريين، ومازالت طُبُولُ الحربِ تدقُّ في أسماعِهِم، ولذا وقرَ في عقيدةِ هؤلاء الشُّعراءِ أنّ الحِفَاظَ على الخلافةِ إحدى الثَّوابتِ الدّينيّةِ التي عليهم التَّمسُّك بها والاحتِماء بركنِها الذي مثَّلته شخصيَّةُ الخليفةِ، لقد باتتِ الخلافةُ عند شعرائنا رمزاً للدّينِ وعَلَماً لِجلالِهِ، وبما أنّ الخلافةَ في يد الأتراكِ فقد وجبت مُناصرتُهم وعدمُ مُنَازَعَتِهم في سُلطةِ الحُكمِ، لقد كانَ المنطلقُ الإبداعيُّ لهذا الشعرِ والدّافِعُ إلى نظمِهِ هو حُبُّ الدِّينِ والتَّمسُّكُ بِرباطِ وِحْدَةِ أتباعِهِ، يقول شوقيّ رافضاً فِتنةَ العِرْقِ ومُؤَكِّداً أنَّ الخلافةَ حَقٌّ لِمن زادَ عنها وحماها:

عَهْدُ الخِلافَةِ في أَوَّلِ زَائِدٍ عَنْ حَوضِها بِبَرَاعَةٍ نَضَّاحِ

حُبٌّ لِذَاتِ اللهِ كَانَ، ولَمْ يَزَلْ وهَوىً لِذَاتِ الحَقِّ والإصلاحِ(١٥)

ويُعَبِّرُ شَوقيُ كَثيراً عَن حُبِّهِ وولائِهِ ومُؤَزَارَتِهِ لعبدالحميد الثَّاني بِاعتِبَارِهِ مُمَثِّلاً للمُسلمينَ، وخَلِيفَةً لِرَسُولِ العَالَمينَ، ويُؤَكِّدُ شوقي أنَّ شِعْرَهُ في الدِّفَاعِ عنِ الخِلافَةِ ومُؤَزَارَةِ الخَلِيفَةِ إنَّما هُو مِنَ صَمِيمِ عَقِيدَتِهِ الإسلامِيَّةِ، يَقُولُ:

يَا وَاحِدَ الإسلامِ غَـيْرَ مُدَافَعٍ أَنَا في زَمَانِكَ وَاحِدُ الأَشْعَارِ

أَخْلَصْتُ حُبِّيَ في الإمَامَةِ دِيَانَةً وجَعَلْتُهُ حَتَّى المَمَاتِ شِعَارِي

لَـمْ أَلْتَمِسْ عَرَضَ الحَيَاةِ وإنّما أَقْرَضْتُهُ في اللهِ والمُخْتَارِ(١٦)

---

[١٢] أحمد شوقي، الشَّوقيات، تقديم، محمد حسين هيكل، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٧٠م، جا، ص٢٩٦

[١٣]– أحمد مُحرَّم بنِ حسن بنِ عبدِاللهِ، مِن أَصْلٍ تُركِيٍّ، وُلِدَ سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م، تَثَقَّفَ ثَقَافةً ذَاتِيَّةً، مِ كِبارِ الشّعراء المُتحمّسِينَ لِلجامعة الإسلاميّةِ، لَهُ دِيوانٌ شِعريٌ لَم يُطبَعْ منه إلّا السّتشياسات في مُجَلّدَينِ إلى جانبِ مَلحَمَتِهِ الإسلاميَّةِ الكُبرى(مجد الإسلام)، تُوفِيّ سنة١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.

[١٤]– أحمد محرم، ديوان أحمد محرّم، السّياسيات، تحقيق، محمود أحمد محرم، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٩٨٤م، ج٢، ص٣٣

[١٥]– أحمد شوقي، الشَّوقيّات، ج١، ص١٠٨

[١٦]– أحمد شوقي، الشوقيات، مجلد١، ج٢،ص٣٩

ونَلمَحُ في البيتِ الأوَّلِ تَناصّ شوقي مع البُحتريّ في قَولِهِ في الخَليفَةِ العَبَّاسيّ المُعْتَزِّ بالله:

يا وَاحِدَ الخُلَفَاءِ، غيرَ مُدافَعٍ كَرَماً، وأَحْسَنَهُم نَدَىً وصَنِعا!([17])

ويُكْثِرُ شَوقِي مِنَ التّأكِيدِ على مُنطَلَقِهِ الدِّينيّ في شِعرِهِ في الخِلافَةِ والخَليفَةِ، فَالشَّاعِرُ لا يَبْتَغِي مِن مَدْحِهِ لِلْخَليفَةِ العُثْمَانِيّ، ودِفَاعِهِ عَن مَرْكَزِيّةِ الخِلافَةِ إلَّا الثَّوَابَ مِنَ اللهِ والتَّزَلُّفَ إليهِ، فَهُوَ لا يَطْمَعُ في عَطَايَا السُّلطَانِ وهِبَاتِهِ، يَقولُ:

وَمَا زِلْتُ (حَسَّان) المَقَامِ ولَمْ تَزَلْ تَلِينِي، وتَسْرِي مِنْكَ لِيَ النَّفَحَاتُ

زَهِدْتُ الدِّي في رَاحَتَيكَ ، وشَاقَنِي جَوَائِزُ عِنْدَ اللهِ مُبْتَغَيَاتُ

ومَنْ كَانَ مِثْلِي أَحْمَدُ الوَقْتِ؛ لَمْ تَجُزْ عَلَيهِ –ولَو مِنْ مِثْلِكَ– الصَّدَقَاتُ[18]

و في الأبياتِ يَظْهَرُ تَأَثُّرُ شَوقي بالمُتَنَبِّيِّ ومَدْحِهِ لِسيفِ الدَّولَةِ، فشوقي ليسَ في حَاجَةٍ إلى ما في أيدي السُّلطانِ مِن مَالٍ أو جَاهٍ، فشَاعِرُنا طَافَت شُهْرَتُهُ الآفَاقَ، ويُرَدِّدُ شِعْرَهُ ومَوَاقِفَهُ جُلُّ أَبنَاءِ الإسلامِ، فَهُو بِمَنْزِلَةِ الشّاعِرِ الصَّحَابِيِّ حَسَّان بنِ ثَابتٍ في دِفَاعِهِ عَنِ الرَّسُولِ والإسلامِ، وهو وإنْ كَانَ يَذْكُرُ الخَليفَةَ بِأَنَّهُ واحِدُ الإسلامِ، فَهُوَ– أيضاً– يَذْكُرُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ واحِدُ الشُّعَرَاءِ، وأحمدُ الوقتِ.

وقَد كَانَ هذا الموقِفُ الدّينيّ مِنَ الخِلافَةِ والخَليفةِ ثَابِتاً عِنْدَ كُلِّ الشُّعَرَاءِ المِصريينَ في ذَلِك الوَقتِ، فَنَجِدُ مُحَمّد عبدالمطّلب[19] يُعَبِّرُ كَثِيراً عَن حُبِّهِ وولائِهِ ومُؤَازَرَتِهِ لِلسُّلْطَانِ عبدالحميد الثّاني بِوصفِهِ الرَّمزَ الجَامِعَ لِوحدَةِ الأُمَّةِ وتَمَاسُكِها،فلولا الخَلِيفَةُ لانهارَت تِلكَ الدُّولُ وتَفَرَّقَ شَمْلُها، وتَحَكَّمَ فيها عَدوّها، يَقُولُ:

يَا عِيدُ حَيّ وأنتَ خَيرُ نَهَارِ عَبدَالحميدِ بِدَولَةِ الأحرَارِ

مَلِكٌ أَقَامَ عَلَى الخِلافَةِ مِنهُمُ حَرَساً وَقَاها صَولَةَ الأشرَارِ

مِن بَعدِ ما كَادَ الزَّمَانُ يُحِلُّها بِالحَورِ دَارَ مَذَلَّةٍ وبَوَارِ

عَهدٌ مَضى.لاعَادَ، كَبَّلَ دَوْلَةَ ال إسلامِ في الأغلالِ والآصَارِ

خَرَمَت مَقَاتِلَها يَدُ الأَطمَاعِ مِ دُولٍ كَلِفْنَ بِحُبِّ الاستِعْمَارِ

هَذي تُطَالِبُ بالدُّخُولِ وهَذِهِ تَحتَالُ في وَطَرٍ مِنَ الأوطَارِ

لولا أَمِيرُ المُؤمنينَ يَحُوطُها لَرَأيتَها خَبَراً مِنَ الأخبَارِ [20]

إنّ الدّافِعَ الأوّلَ في ثَنَاءِ الشُّعَراءِ على السُّلطَانِ، والرّفعَ مِن مَقَامِهِ، ورَفْض أَيّ سُلْطَةٍ تُنَازِعُ الخَلِيفَةَ في سُلطَانِهِ وسُلُطَاتِهِ،كَمَ نَرَى مِنَ الأبياتِ لَيسَ في الخَلِيفَةِ كَشَخْصٍ، إنّما يَكمُنُ فيهِ كَرَمْزٍ يَعْمَلُ على الحِفَاظِ على دَولةِ الإسلامِ واحِدَةٍ ضِدَّ المَطَامِعِ الغَربِيّةِ

---

[17]– أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى التنوخي الطائي، المعروف بالبُحتري، ديوان البحتري، تحقيق، كامل الصّيرفي، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٦٣،ص١٣٠٩

[18]– أحمد شوقي، الشَّوقِيَّات، مجلد١، ج١، ص٩٧

[19]– محمد بنُ عبدالمطّلب بن واصل الجهني المصريّ، وُلِدَ سنة١٢٨٨هـ/١٨٧١م، تعلّم بالأزهر ثم دار العلوم، عمل في عدّة وظائف تعليميّة وإداريّة، كان آخرها بدار العلوم، يُعتبَرُ من رُوّادِ النّهضةِ الشعريّةِ، امتازَ بلغتِهِ الجَزلةِ، من كِبار المناهضِينَ لِلتغريب، له عددٌ من المؤلّفات منها ديوان شعر، تُوفّي سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م.

[20]– محمد عبدالمُطّلب، ديوان محمد عبدالمطلب، شرح وتصحيح، إبراهيم الإبياري، وعبدالحفيظ شلبي، القاهرة، مكتبة الاعتماد،د ت، ص٩٣:٩٤

وقُوَى الاستِعْمَارِ التي أخذَت تَزُفُّ الخِلافَةَ إلى بُلدَانٍ ودُوَيلاتٍ ضَعِيفَةٍ ومُتَخاصِمَةٍ، فَعِندَما يَنْحُو السُّلطَانُ عبدالحميد الثّاني مِن مُحَاوَلَةِ اغتِيَالِهِ سنة١٩٠٥م، نَجِدُ أنَّ شَوقِيّاً يَتَوَجَّهُ بِالتَّهنئةِ لِلأُمَّةِ الإسلاميّةِ، لأنَّ الذين قصدوا اغتيالَهُ، لَمْ يَقصُدوا اغتِيَالَهُ كَشَخصٍ، بل أرادوا اغتِيَالَهُ كَرَمْزٍ جَامِعٍ لِوِحْدَةِ الأمَّةِ، يَقُولُ شوقيٌّ:

هَنِئاً أَمِيرَ المُؤمِنِينَ فَإنّمَا ... نَجَاتُكَ لِلدِّينِ الحَنِيفِ نَجَاةُ

هَنِئاً (لِطَه) والكِتَابِ وأُمَّةٍ ... بَقَاؤكَ إبْقَاءٌ لَهَا وحَيَاةُ

ومَن يَكُنْ فِي بُرْدِ النَّبِيِّ وثَوبِهِ ... تَعجِزْهُ إلى أعدَائِهِ الرَّمِيَّاتُ

يَكَادُ يَسيرُ البَيتُ شُكراً لِرَبِّهِ ... إليكَ، ويَسعَى هَاتِفاً عَرَفَاتُ

يَحُوطُكَ إنْ خَانَ الحُمَاةُ انتِبَاهُهُم ... مَلائكُ مِن عِندِ اللّهِ حُمَاةُ

فَلولاكَ مُلْكُ المسلِمِينَ مُضَيَّعٌ ... ولولاكَ شَمْلُ المسلِمِينَ شُتَاتُ[٢١]

يَظْهَرُ مِنَ الأبياتِ مَكَانَةُ الخَلِيفَةِ المُقَدَّسَةِ في وُجدَانِ شَوقِيٍّ، فقد جَعَلَ الشّاعِرُ كُلَّ المُقَدَّساتِ تَتَفَاعَلُ مَعَ الخَلِيفَةِ وتَرتَبِطُ بِهِ، فَلْيَهنَأ الرّسولُ والكِتابُ وأُمّةُ الإسلامِ بِنَجاةِ الخليفَةِ، والبيتُ الحَرَامُ يَشكُرُ رَبّهُ، وعَرَفَاتُ يسعى هَاتِفاً بالذّكرِ والشُّكرِ مِن فَرْطِ الفَرَحِ، فَالخلِيفَةُ ظِلُّ اللهِ في الأَرضِ يَحفَظُهُ ويَرعَاهُ حَيثُ تَحُفُّهُ الملائكَةُ، ويُحَصِّنُه بُردُ النّبِيِّ عليه الصَّلاةُ والسّلامُ.

ويَرْفَعُ نَسيمُ مَقَامَ الخَلِيفَةِ مَشبّهاً جِهَاده بينَ الجيشِ العُثمانيّ بِجِهَادِ الرَّسُولِ الكَرِيمِ بين أَصحَابِهِ المجَاهِدينَ، يَقُولُ:

خَلِيفَة الله يا ابنَ الغُرِّ مِن نُجَبٍ ... لِلَّهِ دُرُّكَ يَومَ الرَّوعِ مِن عَضُدِ

جَاهَدْتَ في المُلْكِ تَحْمِيَهُ وتَحْفَظُهُ ... جِهَادَ طَهَ مَعَ الأَنصَارِ في أُحُدِ[٢٢]

هذا الموقِفُ المقَدّسُ لِشَخصِيّةِ الخَلِيفَةِ كانَ يَهدِفُ في المَقامِ الأوّلِ إلى الحِفَاظِ على دَولَةِ الإسلامِ مَوَحّدَةً، وقد ضَرَبَ هؤلاءِ الشُّعراءُ أروَعَ المَثَلِ في الارتِقاءِ على كُلِّ عَنَاصِرِ الفُرْقَةِ مِن عِرقٍ، أو لُغَةٍ، أو تَارِيخٍ، فَنَجِدُهُم يُهَاجِمُون كُلَّ دَعوَةٍ أو حَرَكَةٍ تَهدِفُ إلى الانفِصَالِ عَن دَولَةِ الخِلافَةِ العُثمانيّةِ ولو كانت من بَنِي جِلدَتِهِم مِنَ العَرَبِ، في وَقْتٍ كانت كُلُّ القَومِيّاتُ تَنْقَلِبُ على الخلافَةِ العُثمانيّةِ، فقد ظَلَّ غَالِبِيَّةُ العرَبِ حَرِيصينَ على بَقَاءِ دَولَةِ الخلافَةِ.

٢- رَفضُ الحَرَكَاتِ الانفِصَالِيّة:

هَاجَمَ المِصرِيونَ سَاسةً وكُتّاباً وشُعَرَاءَ كُلَّ الحَرَكَاتِ الدّاعِيَةِ إلى الانفِصَالِ عَنِ دَولَةِ الخِلافَةِ، فقد هَدَاهُم وَعيُهُم الوَطَنِيُّ، ووَازِعُهُم الدِّينِيُّ العَمِيقُ، وخِبْرَتُهُم بِأَبَاطِيلِ وحِيَلِ الغَربِ الصَّلِيبِيِّ إلى ضَرَرِ وخُطُورَةِ هَذِهِ الحَرَكَاتِ على وِحدَةِ الأُمَّةِ وعلى استِقلالِها واستِقرَارِها، فَنَجِدُ مُصطَفَى كَامِل يُهَاجِمُ فِكرةَ الخِلافَةِ العَرَبِيَة، ويُفَنِّدُ مَكْرَ دُعَاتِها وخُبثَ هَدَفِهِم، فقد رأى أنّ هذه الدّعوَةَ هي إحدى الدّسَائسِ التي حَاكَها الإنجليزُ لِتَفْرِيقِ وِحدَةِ الأُمَّةِ ووَضعِ خِلافتِهِم تَحتَ سَطوَةِ الإنجليز، يقول:" تَأَكّدَ للإنجِليزِ أنَّ خَيرَ وَسِيلةٍ تَضمَنُ لَهُمُ البَقاءَ في مِصرَ ووضعِ يَدِها على وَادِي النّيلِ هي هَدمُ السّلطَنَةِ العُثمانيّةِ ونقلُ الخلافةِ الإسلاميّةِ إلى رَجُلٍ تَحْتَ وِصَايَةِ الإنكليز، وبِمَثَابَةِ آلَةٍ في أيديهِم، ولِذَلكَ أَخرَجَ سَاسَةُ بِريطانيا مَشرُوعَ الخِلافَةِ العربيّةِ مُؤَمِّلِينَ بِهِ استِمَالة العربِ لَهُم وقِيَامَهُم بِالعِصيَانِ في وَجهِ الدَّولَةِ العَلِيَّةِ"[٢٣]

---

[٢١]- أحمد شوقي، الشّوقيّات، مجلد١،ج١، ص٩٧:٩٢

[٢٢]- محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الشعر المصري، ج١، ص١٤.

[٢٣]- مصطفى كامل، المسألة الشرقيّة، ص١٣-١٤

وقد نَجَحَ الإنجليزُ في استِمَالَةِ بَعضِ ضِعَافِ الدّينِ ومُحِبّي السُّلطَةِ الزّائفَةِ، وقد كانَ على رأسِ هؤلاءِ الشّريفُ حسين[٢٤] أَميرُ مَكّةَ، فقد تَحَالَفَ الرّجُلُ مَعَ الإنجليزِ ضِدَّ دَولَةِ الخِلافَةِ، وقد قامَ الشّعراءُ بِوَاجِبِهم في مُوَاجَهَةِ هذا المتَمَرّدِ على الخليفَةِ والمتحَالِفِ معَ المستَعمِر، فَهَاجَمَ الشُّعراءُ الشَّريفَ حسين بِضَرَوَاتٍ واتَّهَمُوه بِالخِيَانَةِ ودَعوا السُّلطَانَ إلى وَأدِ فِتنَتِهِ وكَسرِ شَوكَتِهِ، فَهذا شوقيٌّ يَنظِمُ قَصِيدَةَ(ضَحِيجُ الحَجِيجِ) ويرفعُها إلى السُّلطانِ عبدالحميد سنة١٩٠٤، شَاكِياً إليهِ اضطِراب الأَمْنِ في عُمُومِ الحِجَازِ بِسببِ عِصيانِ الشَّرِيفِ، مِمَّا هَدَّدَ حُجَّاجَ بيتِ اللهِ، وقد طلبَ الشَّاعرُ بِشَكْلٍ صَرِيحٍ وقَوِيٍّ بِسُرعَةِ وشِدَّةِ مُعَاقَبَةِ هذا العَاصي المُثِيرِ للفِتَنِ، فما يَجِبُ للخَلِيفَةِ أنْ تأخُذَهُ في مِثلِ هؤلاءِ رَحمَةٌ، يَقولُ في فِتنَةِ الحسين وجِرائمِهِ:

ضَجَّ الحِجَازُ، وضَجَّ البيتُ والحَرَمُ ... واستَصرَخَتْ رَبَّها في مَكَّةَ الأُمَمُ

قَدْ مَسَّها في حِمَاكَ الضُّرُّ، فَاقضِ لَها ... خَلِيفَةَ اللَّهِ، أنتَ السَّيدُ الحَكَمُ

لَكَ الرُّبُوعُ التي رِيعَ الحَجِيجُ بِها ... أَ لِلشَّرِيفِ عليها أمْ لَكَ العَلَمُ؟

أُهِينَ فيها ضُيُوفُ اللهِ، واضطُهِدوا ... إنْ أنتَ لَمْ تَنْتَقِمْ فاللَّهُ مُنْتَقِمُ

أَ في الضُّحَى-وعُيُونُ الجُنْدِ نَاظِرَةٌ- ... تُسْبَى النِّسَاءُ ويُؤذَى الأَهلُ والحَشَمُ؟!

ويُسْفَكُ الدَّمُ في أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ ... وتُستَبَاحُ بِها الأَعْرَاضُ والحُرُمُ؟

يَدُ الشَّرِيفِ على أَيدِي الوِلاةِ عَلَتْ ... ونَعْلُهُ- دُونَ رُكْنِ البيتِ- تُستَلَمُ[٢٥]

ثُمَّ يَتَوَجَّهُ الشَّاعرُ إلى الخَلِيفَةِ مُحَرِّضاً لَهُ على الشّرِيفِ، وداعياً إيَّاهُ سُرعَةَ الانتِقَامِ مِنهُ، فلا يَجِبُ على السُّلطانِ أنْ تَستبطِئَهُ قَرَابَةُ الشّريفِ إلى النَّبِيّ- صَلَّى الله عليه وسَلّمَ- فَنبيُّنا الكريمُ مولىً للصَّالحينَ وليس مولىً للمُجرِمينَ الفَاسِقينَ المفْسِدِين في الأرضِ، يَقُولُ:

أَدِّبْهُ أَدِّبْ- أَمِيرَ المُؤمِنِينَ- فَمَا ... في العَفْوِ عَن فَاسِقٍ فَضْلٌ ولا كَرَمُ

لا تَرْجُ فِيهِ وَقَاراً لِلرَّسُولِ. فَما ... بينَ البُغَاةِ وبينَ المُصطَفى رَحِمُ

ابنُ الرَّسُولِ فَتًى فِيهِ شَمَائِلُهُ ... وفِيهِ نَخْوَتُهُ، والعَهْدُ، والشَّمَمُ

ما كَانَ طَلَقَ لِرَهْطِ الفَاسِقِينَ أَبَاً ... آلُ النَّبِيِّ بِأَعْلامِ الهُدَى خُتِمُوا

خَلِيفَةَ اللهِ. شَكْوَى المُسلِمِينَ رَقَتْ ... لِسُدَّةِ اللهِ هَلْ تَرْقَى لَكَ الكَلِمُ[٢٦]

هَذِهِ أَبيَاتٌ حِجَاجِيَّةٌ مُحْكَمَةٌ في عَرْضِ الدَّلِيلِ لِلوُصُولِ إلى النَّتِيجَةِ التي يَقصُدُ الشَّاعرُ إقنَاعَ الخَلِيفَةِ بِها، فالشّريفُ يَستَحِقُّ العِقابَ والعَزلَ مِن إمَارَةِ مَكّةَ، ولا تُوجَدُ هُناكَ عِلَّةٌ تَمنَعُ السّلطَانَ مِن إجرَاءِ ذَلِكَ، أو غَضُّ الطَّرفِ عَن تِلكَ الجَرَائِمِ التي

---

[٢٤]-حسين بن علي هو الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون ، ولد في الأستانة ١٢٧٠هـ-١٨٥٤م حيث كان والده منفيّا بها، عاد والده إلى مكة وعمره ثلاث سنةات، تولّى إمارة مكة، وتحالف مع الإنجيليز في الحرب العالمية الأولى، ونادى إلى ما يسمّى بالثورة العربية ضد العثمانيين، ونصّبَ نفسه خليفةً للمسلمين بعد سقوط الخلافة العثمانية ولكن لم يعترف بخلافته أحد، انتصر عليه آل سعود وأخرجوه من مكة والحجاز، وأجبر على التنازل عن ولاية شرق الأردن لأكبر أبنائه، ثم نقل إلى قبرص فأقام فيها ست سنواتٍ، ثم مرض فأذن له الإنجيليز بالعودة إلى عمان، مكث معتلاً ستة أشهر وأياماً ، ووافته المنية سنة ١٣٥٠هـ. ١٩٣١م ، فحمل إلى القدس و دفن فيها.

[٢٥]- أحمد شوقي، الشّوقيّات،مجلد١، ج١،ص٢١١-٢١٢

[٢٦]- أحمد شوقي، الشّوقيّاتُ، مجلد١، ج١، ص٢١٢

باتَتْ تُهَدِّدُ الجزيرَةَ العربيّةَ والأمّةَ الإسلاميّةَ، ويأتي البيتُ الأخيرُ قويّاً، يُخاطِبُ الشّاعرُ الخَليفَةَ في أسلوبٍ استِفهاميٍّ يَتَعَجَّبُ فيهِ من صَمتِ الخَليفَةِ على جَرَائمِ الشِّريفِ، ويُعلِنُ يَأسَ النَّاسِ وحَيرتَهُم من صمتِ السّلطنةِ، فقد رَفَعَ المسلِمُونَ شَكْوَاهُم إلى الله، فَهل لم تَصِل شَكوَاهُم إلى الخَليفَةِ بعد.

ويَخْتِمُ الشّاعِرُ قَصِيدَتَهُ بِأَبيَاتٍ خَالِدَةٍ تَفْضَحُ الشَّرِيفَ وأَحْزَابَهُ مِنَ المُتَآمِرِينَ على وِحدَةِ الأمّةِ الإسلاميّةِ والمُتَحالفينَ مَعَ المسْتَعْمِرِ الإنجليزِيِّ، يقول شوقي:

رَبَّ الجَزِيرَةِ، أَدْرِكْها، فقد عَبَثَتْ ... بِها الذِّئابُ، وضَلَّ الرّاعيَ الغَنَمُ

إنَّ الذّينَ تَوَلّوا أَمْرَها ظَلَمُوا ... والظُّلْمُ تَصْحَبُهُ الأَهْوَالُ والظُّلَمُ

في كُلِّ يَومٍ قِتَالٌ تَقْشَعِرُّ لَهُ ... وفِتْنَةٌ في رُبُوعِ اللَّهِ تَضطرِمُ

أَزْرَى الشَّرِيفُ وأحْزَابُ الشَّرِيفِ بِها ... وقَسَّمُوها كَإِرْثِ المَيتِ، وانقَسَمُوا

لا تَحْزِهِم عَنْكَ حِلْماً. واجزِهِم عَنَتاً ... في الحِلْمِ ما يَسِمُ الأفعالَ أو يَصِمُ

كَفَى الجَزِيرَةَ ما جَرُّوا لَها سَفَهاً ... وما يُحَاوِلُ مِن أَطْرَافِها العَجَمُ

في كُلِّ لُجٍّ حَوَالِيها لَهُم سُفُنٌ ... وفَوقَ كُلِّ مَكَانٍ يَابِسٍ قَدَمُ

وَالاهُم أُمَرَاءُ السّوءِ. واتّفقُوا ... مَعَ العُدَاةِ عليها، فَالعُدَاةُ هُمُ

فَجَرِّدِ السَّيفَ في وَقْتٍ يُفِيدُ بِهِ ... فَإِنَّ لِلسَّيفِ يَوماً، ثُمَّ يَنْصَرِمُ[٢٧]

مَن يُمْعِنِ النَّظَرَ في الأبياتِ تُدهِشْه هَذِهِ المطَابَقَةُ بينَ وَاقِعِ الأمسِ وحالِ اليَومِ، فالأبياتُ كما تَفضَحُ شَرِيفَ الماضي تَفْضَحُ خُلَفَاءَهُ ومَن يَنتَهِجُ سِيَاسَتَهُ في أيّامِنا الحاليةِ، فَمَازالتِ الجَزِيرَةُ ومازالتِ الأُمّةُ العَرَبيّةُ تَعِيشُ نَفسَ القَضايا وتُواجِهُها نفسُ الأخطَارِ، وإن اختَلَفَ اسمُ المستَعمِرِ أو طَرِيقةُ استِعمارِهِ، فَمَازَالتِ القُوّاتُ الأجنبيّةُ والقَوَاعِدُ الأمريكيّةُ في قَلبِ الجَزِيرَةِ وأَطْرَافِها، ومازالَ التَّحَالُفُ مَعَ العَدوِّ قَوِيّاً، ومازالَ الظُّلْمُ على أبنَاءِ المسلِمِينَ مَفرُوضاً، ولَكِنْ أينَ سَيفُ الخَلِيفَةِ؟!

ويَشتَدُّ هُجُومُ حافظ إبراهيم[٢٨] على الشّرِيفِ حسين ويَتَّهِمُهُ بالخِيَانَةِ والتَّآمُرِ، فقد باعَ أُمَّتَهُ ودِينَهُ مُقَابِلَ رَنِينِ ذهبِ الإنجليز، ويَسِمُهُ بِالخَارِجِيّ الذّي خَرَجَ على حُكمِ الخَلِيفَةِ، ويَصِفُ مَنِ يَتّبِعُهُ بالخَتَالَةِ، ويُهَدّدُهُ بِقُدرَةِ السُّلطَانِ وجَيشِهِ على تَأديبِهِ وإخضَاعِهِ، يقولُ:

---

[٢٧]– أحمد شوقي، الشّوقيّات، مجلد١، ج١،ص٢١٤

[٢٨]– محمد حافظ إبراهيم فهمي، وُلِدَ سنة١٢٨٧هـ/١٨٧٢م، والده المهندس إبراهيم فتحي، مِصريُّ الأصل، وأمّه تُركِيَّةُ الأصلِ، هي السّيدة(هانم بنت أحمد البُورصَه لِي)، درس في الكُلّيّةِ الحربيّةِ وتخرّجَ منها سنة١٨٩١م، وعمل ضابطا بالجيش المصريّ، ونقل إلى السُّودان واشترك في جمعيّةٍ وطنيّةٍ سِرّيّةٍ ضِدَّ الإنجليز وكُشِفَ أمرُها وأُحيلَ بسببها للتّقاعُدِ سنة١٩٠٣م، عاش في وقتٍ كانتِ الأُمّةُ الإسلاميّةُ تُتَسَمُ من كُلِّ جانبٍ، فقام بِوَجِهِ الوطنيِّ والدِّينيِّ وشاركَ في كُلِّ قضايا وطنِهِ وأُمَّتِهِ، ولُقِّبَ شَاعِرُ النِّيلِ، وكانَ مِن رُوّادِ مَدرسةِ الإحياءِ والبعثِ في الشّعرِ العربيّ الحديثِ، مِن مُؤلّفَاتِهِ دِيوانُ، وترجمةُ رُوايةِ(البُؤساءِ) لفكتور هوجو، تُوفّي سنة١٣٥١هـ/١٩٣٢م.

مِنِّي على دَارِ السَّلامِ تَحِيَّةٌ ... وعلى الخَلِيفَةِ مِن بَنِي عُثمانِ
وعلى رِجَالِ الجَيشِ مِن مَاشٍ بِهِ ... أو رَاكِبٍ أو نَازِحٍ أو دَانِـي
وعلى الأُلى سَكَنُوا إلى الحُسْنَى سِوَى ... ذِلِكَ الذّي يَدْعُو إلى العِصْيَانِ
وَالِي الحِجَازِ الخَارِجِيِّ وما بِهِ ... إلَا اقتِنَاصُ الأَصْفَرِ الرَّنَانِ
ما لِلشَّرِيفِ المُنْتَمِي حَسَباً إلى ... خَيرِ البَرِيَّةِ مِن بنِي عَدنَانِ
أَمْسَى يُمَالِئُهُ ويَنْصُرُ غَيَّـهُ ... وضَلالَهُ بِخُثَالَـةِ العُرْبَـانِ[٢٩]

وقد أَكثَرَ أحمدُ مُحَرَّم مِن أَهَمِّيَّةِ الخَلافَةِ ووُجُوبِ المحافَظَةِ عليها لِذَلِكَ هَاجَمَ كَلّ مَن سَوَّلَت لَهُ نَفسُهُ الخُرُوجَ على الخَلِيفَةَ، فَفي قَصِيدَةٍ لَهُ يَصِفُ الشَّرِيفَ حسين بالخَائِنِ المفْتُونِ الذّي شَقَّ عَصا الطَّاعَةِ، ويَشْكُو فيها من تَمَزُّقِ المسلِمينَ وفُرْقَتِهِم، يقول:

ألا إنَّ مَن شَقَّ العَصَا لَمُذَمَّـمٍ ... وإنَّ الذّي يَبْغِي الفَسَادِ لَآثِـمُ
ومَن كَانَ يَأْبَى أنْ يُوَالِي إمَامَهُ ... طَوَاعِيةً وَالَاهُ والأَنْفُ رَاغِـمُ
سَيَعْلَمُ مَن خَانَ الخَلِيفَةِ أَنَّهُ ... مُوَاقِعُ أَمْرٍ شَرُّهُ مُتَفَـاقِـمُ
أَطَاعَ هَوَاهُ واستَزَلَّتْهُ فِتْنَـةٌ ... عَضُوضٌ تَلَوَّى في لُهَاها الأَرَاقِمُ
لَهُ الوَيلُ، مَاذا هَاجَ مِن نَزَوَاتِهِ ... فَثَارَ يُرَامِي رَبَّهُ ويُرَاجِـمُ؟
أَيَطْلُبُ مُلْكاً أَمْ يُرِيدُ خِلافَـةً ... تُقَامُ لَها في المَشْعَرَينِ المَوَاسِمُ؟
تَبَارَكْتَ رَبِّي، كَيفَ يَعْصِيكَ مُسْلِمٌ ... فَيُوقِعُ بِالإسلامِ ما أنتَ عَالِـمُ؟[٣٠]

وفي إبانِ الحرب العالميّةِ الأولى يكتبُ مُحَرَّمٌ قصيدةً تَزيدُ أبياتُها على المائتين ينتصرُ فيها للخلافةِ ويُهاجمُ إنجلترا والحلفاء، ويرفضُ مُحاولاتِ الإنجليز في تنصيبِ الشَّريفِ حسين خليفةً للعرب، ويكشفُ عن خَديعةِ الإنجليز للشريفِ حسين وأتباعِهِ، ويدعوهم بنزع هذه الغِشَاوَةِ من فَوق أعيُنِهِم حتّى يتمكّنوا منَ الرُّؤيةِ الصَّحِيحَةِ لِلأَحدَاثِ ويَتَبَيَّنُوا مِن مَكرِ الغَربِ وسُوءِ تدبيرِهِ لِلمسلمِينَ عَامَّةً، ولِلعَرَبِ خَاصَّةً:

نُبِئتُ ما زَعَمَ الشَّرِيفُ وقَومُهُ ... فَسَمِعتُ ما لَم تَسمَعِ الأذانِ
رَأَيتُ ما زَانَ المُلُوكَ فَلَم أَجِدْ ... كَطِرَازِ مُلْكٍ بِاسمِهِ مُزْدَانِ
خَدَعُوهُ إذْ ضَاقَ السَّبِيلُ بِمَكْرِهِم ... ورَمُوا بِآمالٍ إلَيهِ حِسَانِ
فَأَبَاحَ ما مَنَعَتْ فَوَارِسُ هَاشِمٍ ... وحَمَتْ ولاةُ البيتِ من عَدنَانِ
يا ذا الجَلالِ لا سَعدَت بِتَاجِهِ ... مَلِكا. سواكَ بِهِ السَّعِيد الهَانِي
ما المُلكُ من عِزٍّ وبَأْسٍ صَادِقٍ ... كَالمُلكِ مِن كَذِبٍ ومن بُهتَانِ[٣١]

---

[٢٩]- حافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهِيم، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه، أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م، ص٤٩-٥٠

[٣٠]- أحمد مُحرّم، ديوانه، ج٢،ص٣٧

[٣١]- أحمد محرم، ديوانه، ج٢،ص١٦٦

ويَرفُضُ أحمدُ الكَاشِف[٣٢] الدّعوَةَ إلى الخِلافَةِ العَرَبيّةِ، والخُرُوجَ على الخَلِيفَةِ العُثمانيّ، بِحُجَّةِ أنَّهُم لَيسُوا عَرَباً، وأنَّهُم لَيسُوا جَدِيرِينَ بِحُكْمِ العَرَبِ، مُؤَكِّداً أنّ تَعَالِيمَ الإسلامِ أَوسَعُ وأرقَى مِن هذا الحَصرِ الكَاذِبِ، فالإسلامُ لَم يَجعَلِ الخِلافَةَ في عِرْقٍ دُونَ آخَرَ، فالكُلُّ تَحْتَ مِظَلَّةِ الإسلامِ سَواءٌ، والأحَقُّ بِها مَن نَاصَرَها، وصَانَهَا، وحَمَى بَيضَتَها، ونَهَضَ بِأَعبَائها: يقولُ:

ما اختَصَّ أَحْمَدُ بِالخِلافَةِ أُمَّةً ... عِلْماً بِأَنَّ الدَّائِرَاتِ تَـدُورُ

أَوْلَى بِها مَن صَانَهَا مِن بَعْدِ ما ... عَبَثَتْ مَقَادِيرُ بِها وعُصُورُ[٣٣]

ويَستَنكِرُ في قَصِيدَةٍ أُخرَى أَيَّ دَعْوَةٍ في الخُرُوجِ على الخَلِيفَةِ، ويَرى أنَّ الخِلافَةَ قَدَرٌ قَدَّرَهُ اللهُ لِلعُثمانيينَ، وأنَّ الخِلافَةَ سَتَظَلُّ فِيهِم مادَامُوا مُحَافِظِينَ على شَعَائِرِه، ذَابِّينَ عَن حِيَاضِهِ، يقولُ:

أَيُنَازِعُونَ على الخِلافَةِ قَادَةً ... لولاهُم غَالَ الخِلافَةَ غَائِلُ؟

اللهُ قَـدَّرَهـا لَهُـم وأَعَزَّهُـم ... مَادَامَ فِيهِم قَـانِتٌ ومُقَـاتِلُ

فَلْيَسْكُنِ العَرَبُ الكِرَامُ إلَيهِمُ ... ولِيَرْبَأَنَّ بِنَفْسِهِ المُتَطَاوِلُ

هَل يَقْتَدِيها والخُطُوبُ جَلائِلُ ... مَن لَم يَصُنْها والخُطُوبُ قَلائِلُ؟[٣٤]

ثانياً: رِثَاءُ السُّلطَانِ عبدالحميد الثَّاني[٣٥]:

كان السّلطانُ عبدالحميد صَاحِبَ مَشرُوعٍ إسلامِيٍّ للنُّهُوضِ بالخِلافَةِ العُثمانيّةِ وبالأُمَّةِ الإسلاميّةِ من خِلالِ مَشروعِ "الجَامِعَةِ الإسلامِيَّةِ"، فقدَ آمَنَ السُّلطَانُ بِأَنَّ وِحدةَ المسلمينَ وتَمَاسُكَهم هي الضَّامِنُ الأكبرُ على بَقَاءِ الخِلافَةِ وبَقَاءِ سُلطَةِ الخَلِيفَةِ، وقد عبَّرَ عبدالحميد الثّاني عن ثِقَتِهِ في وحدَةِ العالَمِ الإسلامِيِّ بِقولِهِ:" يَجِبُ تَقْوِيَةُ رَوَابِطِنا بِبَقِيَّةِ المسلِمينَ في كُلِّ مَكَانٍ، يَجِبُ أنْ نَقتَرِبَ مِن بَعضِنا البَعضُ أكثرَ وأكثرَ، فلا أَمَلَ في المستَقبَلِ إلّا بِهَذِهِ الوِحدَةِ"[٣٦]

---

[٣٢]– أحمد الكاشف: هو أحمد بن ذي الفقار عمر الكاشف، شاعرٌ مصريٌّ، وُلِدَ سنة١٢٩٥هـ/١٨٧٨م، شاعرٌ مصريٌّ من أَصلٍ شَرَكَسِيٍّ، ولد في قرية القرسيّة، من محافظة الغربيّة، برع في الشّعر السّياسيّ حتّى بَزَّ جَميعَ شُعراءِ العصر في هذه الناحية، ويمتاز شعره بأنّه سجلٌ حافلٌ للمسألة الشرقية والقضية المصرية، له ديوان شعريٌّ في جُزأين من مجلدين كبيرين بعنوان(ديوان الكاشف) توفي سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

[٣٣]– أحمد الكاشف، ديوان أحمد الكاشف، دراسة وتحقيق وتعليق، محمد إبراهيم الجيوشي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ج٢،ص٢٨–٢٩

[٣٤]– أحمد الكاشف، ديوانه، ج٢، ص٦١

[٣٥]– السلطان عبدالحميد الثاني بن السلطان عبدالمجيد، وهوالسلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، ولد سنة١٢٥٨هـ/١٨٤٢م، تولى العرش خلفا لأخيه السلطان مراد بن عبدالمجيد سنة ١٨٧٦م، كان ذا شخصية قويّةٍ، تنازل عن العرش لأخيه السلطان محمد رشاد في٢٧ أبريل سنة١٩٠٩، ونُفِي وأسرته إلى سلانيك وعاش تحت الإقامة الجبرية في قصر ليهوديٍّ، ثم نُقل إلى قصر(بيلربي) في إسطنبول الذي أقام فيه حتى وفاته في ١٠ فبراير ١٩١٨، عن عمر يُناهِزُ الثامنة والسبيعين، ودُفِنَ إلى جانب جده السلطان محمود.

[٣٦]– عبدالحميد الثاني، مذكّرات السلطان عبدالحميد، تقديم وترجمة، محمد حرب، دمشق، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م،ص٢٤

لقد كانَ السُّلطانُ ذَكيًّا ومُدْرِكاً للرِّباطِ الحَقِيقيِّ لِلأُمَّةِ الإسلاميّةِ المتَمَثِّلِ في عُنْصُرَيِّ الدِّينِ واللُّغَةِ، وقد عملَ السُّلطانُ على إحياءِ الوَازِعِ الدّينِيِّ، وتَغليبِ النَّزْعَةِ الدِّينيَّةِ على النَّزَعَاتِ القَوميَّةِ والمذْهَبِيَّةِ التي أخذَت تَنتَشِرُ في أَرجَاءِ الخِلافَةِ، وفي سبيلِ ذَلكَ اهتَمَّ السُّلطانُ بِالدَّعوَةِ والدُّعاةِ، وبِنَشرِ الكُتُبِ الإسلاميّةِ، كما اتَّخَذَ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ في الخِلافَةِ لُغَةً رَسمِيَّةً لِلدَّولَةِ[٣٧]

وعلى الرَّغمِ مِن ذَكاءِ السُلطانِ وجُهُودِهِ التي لَم تَتَوَقَّفْ عن إصلاحِ وَاقِعِ الخِلافَةِ فَإنّ المتَغَيِّرَاتِ الخَارِجِيّةَ والدَّاخِلِيّةَ كَانت أَكبرَ مِن طُموحَاتِ السّلطانِ، فَاصطَدَمَ الرَّجُلُ بِمَصَالِحِ الاستِعمَارِ، وباليهودِ، وبالقُوَّةِ النّاشِئَةِ مِنَ الأتراكِ الذّينَ تَأَثَّروا بالفكرِ الغَربِيِّ،والتي انتهت بالأحدَاثِ المعرُوفَةِ تَارِيخِيًّا بِأحدَاثِ ٣١ مارت، والتي انتَهت بِعَزلِ السّلطانِ عبدالحميد من كُلِّ سُلطاتِهِ الدّينيّةِ والمَدَنيّةِ.

وقد تَعَاطَفَ الشُّعَرَاءُ معَ السّلطانِ لِما آلَ إليهِ مَصِيرُهُ، وتَألَّمُوا لِسوءِ مُعَامَلَةِ الانقلابيينَ لَهُ،وهذا في رأيي مَلمَحٌ تَجدِيدِيٌّ في شِعرِ الرِّثاء السّياسيّ، فقد ارتقى الشّعراءُ في موقفِهم هذا عن وظيفةِ التّكسُّبِ بالشّعرِ، وباتُوا يُؤمِنون بقيمةِ كلمتِهم، فما يَجِبُ أنْ يُوظَّفَ شعرُ المدِيحِ والرِّثَاءِ إلّا لِمَن يَستَحِقُّ وفي خِدمَةِ قَضايا الدّينِ والإنسانِ، كما أنّهُ يُمثِّلُ رُقِيَّ النَّزعَةِ الإنسانيّةِ والدّينيّةِ لِلْمصرِيينَ عَامَّةً، يَقُولُ حافظُ إبراهيم في قَصِيدَةٍ سَمّاها(الانقلابُ العُثمانيُّ)[٣٨] :

لا رَعَى اللهُ عَهْدَها مِن جَدُودِ	كَيفَ أَمْسَيتَ يا بنَ (عَبدِالمجِيدِ)
كُنْتُ أَبْكِي بِالأَمْسِ مِنْكَ فَمَالِي	وبِتُّ أَبْكِي عَلَيكَ (عَبدَالحَمِيدِ)
فَرِحَ المُسلِمُونَ قَبْلَ النَّصَارَى	فيكَ قَبْلَ الدُّرُوزِ قَبْلَ اليَـهُودِ
شَمِتُوا كُلُّهُم ولَيسَ مِنَ الهِمَّةِ	أنْ يَشْمَتَ الوَرَى في طَرِيدِ
أنتَ (عَبدُالحَمِيدَ) والتَّاجُ مَعْقُو	دٌ و(عَبدُالحَمِيدِ) رَهْنَ القُيُودِ

ثُمَّ يَلُومُ الشّاعِرُ الانقِلابِيينَ ويأخُذُ عَلِيهِم مُحَاوَلَةَ طَمْسِهِم مَآثِرَ السلطَانِ وإنجَازَاتِهِ، مُشِيراً إلى حَطِّ السِّكَّةِ الحَدِيدِ الذّي أَسَّسهُ السُّلطانُ خِدْمَةً لِحَجِيجِ بيتِ اللهِ:

خَالِدٌ أنتَ رَغْمَ أَنفِ اللَّيَالِي	في كِبَارِ الرِّجَالِ أَهْلِ الخُلُودِ
لَكَ في الدَّهْرِ– والكَمَالُ مُحَالٌ–	صَفَحَاتٌ ما بَينَ بِيضٍ وسُودِ
حَاوَلوا طَمْسَ مَاصَنَعْتَ وَوَدُّوا	لَو يُطِيقُونَ طَمْسَ خَطِّ الحَدِيدِ

ثُمَّ يَذْكُرُ حَافِظُ إبراهيم حُسْنَ بَلاءِ السُّلطانِ في القِيَامِ بِأَعبَاءِ الخِلافَةِ، فالرَّجُلُ مُنْذُ تَوَلَّى الحُكْمَ لَم يَستَرِحْ لِعِظَمِ المسؤوليَّةِ، فعَزلُ السُّلطَانِ واعتِقَالُهُ لَيسَ أكثَرَ في شَمَائِهِ وعَنَائِهِ مِنَ القِيَامِ بِمَسؤولِياتِ الخِلافَةِ، ويواسي السُّلطَانَ بِأَنَّ حَالَهُ أَفْضَلُ مِن حَالِ بَعْضِ أَسْلافِهِ مِثلِ السُّلطانِ المجَاهِدِ بَايَزِيد الذّي مات مُعتَقَلاً في سُجُون تِيمُور لنك:

أنتَ مَهما شَقيتَ أَزْفَهُ حَالاً	مِنْ أَسِيرِ الجَزِيرَةِ المَكْمُودِ
وأَسيرُ الأَقفَاصِ قد كَانَ أَشْقَى	لَو سَأَلْتَ الأَسْفَارَ عَنْ(بَا يَزِيدِ)
كَانَ (عَبدُالحَمِيدِ) في القَصْرِ أَشْقَى	مِنْهُ في الأَسْرِ والبَلاءِ الشَّدِيدِ

[٣٧]– محمد حرب، السُّلطان عبدالحميد الثّاني آخرُ السَّلاطِينِ العُثمَانيينَ الكِبَار، دمشق، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م،ص١٧١–١٧٢

[٣٨]– حافظ إبراهيم، الدّيوان، ص٣٥٧

كَـانَ لا يَعْـرِفُ القَـرَارَ بِلَيـلٍ ... لا ولا يَسْتَلِذُّ طَعْمَ الهُجُودِ

حَـذِراً رَهَـبُ الظَّلامَ ويَخْشَى ... خَطْرَةَ الرِّيحِ أو بُكاءَ الوَلِيـدِ

نَفَقٌ تَحْتَ طَابِقِ الأَرْضِ أخْفَى ... في تَدَجِّيهِ مِن ضَمِيرِ الكَنُودِ

ويَسْتَنكِرُ شَاعِرُ النّيلِ تِلْكَ الاتّهَامَاتِ الموجَّهَةَ لِلسُّلطَانِ والتي ادّعَاها الانقِلابِيُّون سَبباً لِعَزْلِهِ:

أَصَحِيحٌ مَا قِيـلَ عَنْـكَ وحَـقٌّ ... ما سَمِعْنا منَ الرُّوَاةِ الشُّهُودِ

أنَّ (عَبدَالحَمِيدِ) قَد هَدَمَ الشَّرْ ... عَ وأَرْسَى عَلَى فِعَالِ (الوَلِيدِ)؟

ويَعْطِفُ أحمدُ شَوقي على السُّلطانِ في مِحنَتِهِ، ويرى أنّهُ في مَوقِفِهِ بَعدَ الخَلْعِ أَحَقُّ بالرِّثَاءِ، لِما آلَ إليهِ مِن ذُلٍّ بَعدَ عِزٍّ، ويُجِلُّهُ في مَقَامٍ كَبيرٍ، ويَستَنكِرُ الموقِفَ غيرَ الأَخلاقِيِّ وغيرَ الإنسانِيِّ لِلشَّامِتِينَ واللائِمِينَ بِحَالِ السُّلطانِ، يَقُولُ في قَصِيدَتِهِ(الانقِلابُ العُثمَانِيُّ وسُقُوطُ السُّلطَانِ عبدِالحَمِيدِ)[٣٩]:

خَطْبُ الإمَامِ عَلَى النَّظِيـ ... ـمِ يَعِزُّ شَرْحاً والنَّثِيرِ

عِظَةُ المُلُوكِ، وعِبْرَةُ الـ ... ـأَيَّامِ في الزَّمَنِ الأَخِيرِ

شَيخُ المُلُوكِ وإنْ تَضَعـ ... ـضَعَ في الفُؤَادِ وفِي الضَّمِيرِ

نَسْتَغْفِرُ الـمَولَى لَـهُ ... واللهُ يَعْفُو عَنْ كَثِيرِ

وَنَـرَاهُ عِـندَ مَصَـابِهِ ... أَوْلَى بِبَاكٍ أَو عَـذِيرِ

ونَـصُـونُـهُ ، ونُـجِلُّهُ ... بَينَ الشَّمَـائَةِ والنَّكِيرِ

عَبْدَالحَمِيدِ ، حِسَابُ مِثْـ ... ـلِكَ في يَدِ المَلِكِ الغَفُورِ

ويَغلِبُ الوَفَاءُ على أَحْمَد مُحَرَّم فَيُهَاجِمُ الشَّامِتِينَ في حَالِ السُّلطانِ المخلُوعِ، ويأخُذُ عَلَيهِم نُكرَانَهُم لِفَضَائِلِ السُّلطانِ، وتَجَرُّأَهُم عَلَى الإسَاءةِ لِمَقَامِهِ وهُم مَن كَانُوا يَتَزَلَّفُون لَهُ، كَمَا يُدَافِعُ عَنِ السّلطانِ ويُبَرِّئُهُ مِنَ التُّهَمِ التي أَلْصَقَهَا بِهِ خُصُومُهُ، وأنّ السَّبَبَ في ذَلِكَ هِي بِطَانَةُ السُّوءِ المحِيطَةُ بِقَصرِ الخَلِيفَةِ، يقُولُ:

ثَوَى عَاثِرُ الآمَالِ يُؤنِسُهُ الأَسَى ... ونُوحِشُهُ أَوطَارُهُ ومَآرِبُـه

كَأَنَّ جَلالَ المُلْكِ لَمْ يَبْدُ حَوْلَهُ ... مَهِيباً ولَمْ تُضْرَبْ عَلَيهِ مَضَارِبُه

كَأَنَّ السَّرَايا والفَيَالِقَ لَمْ تَسِرْ ... إلى الموتِ تَثْنِي دُونَهُ مَن يُحَارِبُه

كَأَنَّ الأُولَى زَانُوا للمَنَابِرَ بِاسمِهِ ... أَحَلُّوا بِدِينِ اللهِ ما لا يُنَاسِبُـه

طَوَوا ذِكْرَهُ واستَودَعُوا اللهَ عَهْدَهُ ... وكُلُّ امرِئٍ رَهْنٌ بِمَا هُو كَاسِبُه[٤٠]

ثُمَّ يَنقِمُ أحمد محرم عَلَى تِلكَ الافتِرَاءاتِ التي ادَّعَاها البَعضُ في السُّلطان لِيُشوِّهُوا تَارِيخَ السُّلطانِ ويُطَلسِمُوا على فَضَائلِهِ:

أَرَى النَّاسَ مَن يَقْعُدْ بِهِ الدَّهرُ يَنْقُمُوا ... عَلَيهِ وإنْ كَانَتْ قَلِيلاً مَعَايِبُه

---

[٣٩]– أحمد شوقي، الشَّوقيّات، ج١، ص١١٩

[٤٠]– أحمد مُحرّم، الدّيوان، ج٢، ص٨

أَلَمْ يَكُ ظِـلَّ اللهِ بِالأَمسِ بَينَنا — نَلُوذُ بِهِ والخَطْبُ ضَنْكٌ مَذَاهِبُه
أَ نُطْرِيهِ قَهَّاراً ونُؤذِيهِ مُرْغَماً؟! — كَفَى اللَّيثُ شَرّاً أنْ تُفَلَّ مَخَالِبُه
ألا رَاحِمٌ، هَلْ مِن شَفِيعٍ أَمَا كَفَى؟ — أَكُلُّ بَنِي الدُّنيا عَدُوٌّ يُغَاضِبُه
أَكَانَ يُرِيدُ السُّوءَ بِالمُلكِ؟ أم يَرَى — مَسَرَّتَهُ في أنْ تَرِنَّ نَوَادِبُـه
أَكُلُّ مَآتِيهِ ذُنُوبٌ؟ أَكُلُّـهُ — عُيُوبٌ؟ ألا مِن مُنْصِفٍ إذْ نُحَاسِبُه؟!
أَ لَيسَ الأُولَى غَشُّوهُ أَجْدَرَ بِالأَذَى؟ — وأَولَى الوَرَى بِالشَّرِّ مَن هُوَ جَالِبُه[41]

ويغلبُ على الأبياتِ الأسلوبُ الإنشائيُّ في صيغةِ الاستِفهامِ الاستنكاريّ، فهو يستنكر على الجاحدين لِفضلِ السّلطانِ، والحاقدين عليهِ وعلى مَشروعه الإسلاميّ تلكَ الافتراءاتِ التي أشاعوها وألصقوها بِهِ، وتلكَ النَّقائصَ التي وسموه بِها، فليسَ منَ المقبولِ دينيّا ولا أخلاقيًّا أن تُهِينَ سُلطاناً بِهذهِ الغلظة خاصّةً وقد تقدّمَ به العمرُ، كما أنّهُ ليسَ منَ المنطقيِّ أنْ نَمحُوَ كُلَّ آثارِ السُّلطانِ ونُحوِّلَها آثاماً وجرائمَ لِمُجَرَّدِ اختلافِنا معَهُ، فاختلافُنا السّياسيُّ ليسَ مُبَرِّراً لِظُلمٍ وإجحَافِ الآخرينَ.

ثالثا: رِثاءُ أَدِرْنَةَ[42]:

في أَوَاخِرِ سَنَةِ ١٩١٢ تَتَمَرَّدُ دُوَلُ البُلْقَانِ مُتَمَثِّلَةً في الصِّربِ، وبلغاريا، واليُونانِ، والجَبَلِ الأَسودِ، مَدْعُومَةً مِنَ الدُّوَلِ الأوربِيَّةِ، وعلى رَأسِهِم روسيا وإنجلترا وفرنسا، يَجمعُهُم العَدَاءُ المشتركُ لِلدَّولةِ العُثمانيّة الإسلاميّةِ، ويُهاجِمُ هذا التَّحالُفُ الدّولةَ العُثمانيّةَ، ويَنجَحُ في الاستِيلاءِ على الكَثيرِ مِنَ المدُنِ العُثمانيّةِ الهَامّةِ كَأَدِرْنَةَ ، وسالونيك، بَل لم يَبقَ مِنَ المدُنِ العُثمانيّةِ الهَامّةِ في أوربا إلّا القِسطِنطينيّةُ.

وقَد كَانَ لِسُقُوطِ هَذِهِ المدُنِ وخَاصّةً أَدِرنَةَ دُرَّةِ البلادِ العُثمانيّةِ وحَاضِرتِها السّابقةِ أَثَرٌ عَمِيقٌ في قُلُوبِ المسلِمينَ، فَانتَفَضَ الشُّعراءُ المصريونَ مُعزِّينَ عَنْ هذا الجُرحِ الجَدِيدِ، فيُبدِعُ أَحمَدُ شَوقِي في رِثَاءِ أَدِرنَةَ بِقَصِيدَةٍ هِيَ عِندِي مِن فَرَائِدِ القَصَائِدِ العَرَبِيَّةِ التي نُظِمَت في رِثَاءِ المدُنِ والممَالِكِ في تَارِيخِ الشِّعرِ العربيّ، فقد تَمَيَّزَت بِصِدقٍ سَرَى في جَمِيعِ بِنَى القَصِيدَةِ مِن اللُّغَةِ إلى المعنَى، ومِنَ الموسِيقى إلى الصُّورِ، وقَد وُفِّقَ الشَّاعِرُ في احتِيَارِ عُنوَانِ القَصِيدَةِ (الأَنْدَلُسُ الجَدِيدَةُ)[43] فالعَتَبَةُ الأُولَى لِلنَّصِّ ذَاتُ دِلالَةٍ مُوجِعَةٍ في الذَّاكِرَةِ العَرَبِيّةِ والإسلامِيَّةِ، حَيثُ رَبَطَت بَينَ جُرحِ اليَومِ بِجُرحِ الأَمسِ، ووَجَعَ مَصَابِ الحَاضِرِ بِوَجَعِ مَصَابِ الماضِي، فالجِرَاحُ مَفتُوحَةٌ والآلامُ مُتَواصِلَةٌ، والأَحطَارُ مازَالَت تُحِيطُ بِالأُمَّةِ وتُحدِقُ بِدَارِ الخِلافَةِ، ثُمَّ يُواصِلُ الشّاعِرُ في رَبطِهِ البَدِيعِ والمؤثِّرِ بينَ ضَيَاعِ الأَنَلُسِ وضَيَاعِ أَدِرنَةَ فيقولُ:

يَا أُخْـتَ أَنْدَلُسٍ، عَلَيكِ سَلامُ — هَـوَتِ الخِلافَةُ عَنْكِ، والإسلامُ
نَزَلَ الهِلالُ عَنِ السَّمَاءِ. فَلَيتَها — طُوِيتْ، وَعَـمَّ العَالَـمِينَ ظَـلامُ
أَزْرَى بِـهِ، وأَزَالَـهُ عَـنْ أَوْجِـهِ — قَـدَرٌ يَحُطُّ البَـدْرَ وهُـوَ تَـمَامُ

---

[41]- أحمد مُحرَم، الدّيوان، ج٢، ص٩

[42]- إحدى مدن تركيا في إقليم تراقيا، تقع في أقصى الجهة الشمالية الغربية من الجزء الأوروبي للجمهورية التركية، أسسها الأمبروطور الروماني(هادريان) في القرن الثاني الميلادي، ثم سيطر عليها اليونان، ثم فتحها السلطان العثماني مراد الأول سنة ٧٦٢هـ، ١٣٦٢م، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية، وبذلك انتقلت عاصمة الدولة العثمانية إلى أوربا وظلت عاصمة للدولة العثمانية حتى عام ١٤٥٣م.

[43]- أحمد شوقي، الشوقيات، مجلد١، ج١،ص٢٣٠

جُرْحَانِ تَمْضِي الأُمَّتَانِ عَلَيهِما هَـذَا يَسِيلُ ، وذَاكَ لا يَلْتَـامُ
بِكمَا أُصِيبَ المُسلِمُونَ. وفِيكُما دُفِنَ اليَرَاعُ ، وغُيِّبَ الصَّمْصَامُ

يرسُمُ الشَّاعرُ بِفرشاةِ الكلمةِ صُورةً حزينةً كئيبةً لِما حلّ بأدرنةَ، فبجانب ندائِهِ الجميل والموحي في"أُخت أندلسٍ" نجدُ الشّطرَ الثَّاني يُجسّدُ المصابَ والفاجعةَ تجسيداً يَهزُّ القُلُوبَ ويُدمِيها في" هَوَتِ الخِلافَةُ عَنْكِ، والإسلامُ" فالفعلُ" هوى" يحملُ دلالةَ الشِّدَّةِ والعُنفِ في السُّقُوطِ، كما يحملُ دلالةَ الجَبرِ وعدِ الاختيارِ، فلم تتخلّى الخلافة عن أدرنةَ مُختارةً، ولم يتركِ الإسلامُ أدرنةَ عن إرادةٍ، وإنّما تَمَّ ذلكَ قسراً وقهراً، وهو ما يدلُّ على الانكسارِ والذُّلِّ الذّي سبَّبتهُ الهزيمةُ للخلافةِ وللمسلِمِينَ، ويستمرُّ الشّاعرُ في التّعبيرِ عن هذا الذّلِ بتعبيرٍ كِنائيٍ بليغٍ هو" نَزَلَ الهِلالُ عَنِ السَّمَاءِ"وهو استعارةٌ مَكنيّةٌ حيثُ صوّرَ الهلالَ إنساناً يَهبِطُ منَ السَّماءِ، وهو–أيضاً– كِنايةٌ غنيةٌ بالدّلالاتِ، فدلالتُهُ القريبةُ هي غِيابُ الهلالِ عَن سماءِ المدينةِ، وسيطرةُ الظَّلامِ على أجوائها، أمَّا دلالتُهُ البعيدةُ والمقصودةُ فهي زَوَالُ دَولةِ الخلافةِ عن أدرنةَ، وزوالُ الإسلامِ بِكُلِّ معالِمِهِ، وذلكَ عن طريقِ نزولِ العلمِ العثمانيّ رمزُ الخلافةِ والإسلامِ من سماءِ أدرنة، وغلبةِ الأعلامِ الصّليبيّةِ.

ويستمرُّ الشّاعرُ في الرّبطِ بينَ ضَياعِ الأندلسِ وسُقوطِ أدرنةَ، فهُما جُرحانِ في جسدِ الأمّةِ، وقد أحسنَ الشّاعرُ في استعمالِ الفعلِ المضارعِ في الشّطرِ الثّاني في قوله:" هَذَا يَسِيلُ ، وذَاكَ لا يَلْتَامُ"، فالمضارعُ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرار، وهو ما يناسبُ تجدُّدَ واستمرارَ آلام هذينِ الجُرحَينِ، وفيه–أيضاً– دِقّةٌ وتفصيلٌ منَ الشّاعرِ، فقد استخدم الفعلَ"يسيل" مع جُرحِ"أدرنة"، و"يَلتَامُ" معَ جُرح" الأندلس"، وفي ذلكَ حكمةٌ منَ الشّاعرِ، فالأندلسُ ضاعتْ مُنذُ زمَنٍ طويلٍ، وفُقِدَ الأملُ في استردَادِها وعودَتِها إلى دَولةِ الإسلامِ، وهو ما يناسبُهُ الفعلُ"يَلتَامُ" فهو دلالةٌ على قِدَمِ الجُرحِ، أمّا سُقوطُ أدرنةَ فَجُرحٌ جَدِيدٌ مازالت دِماؤهُ تَتَقَاطَرُ، وهو ما يُناسِبُهُ الفعلُ" يَسيلُ".

ويَسْتَشِيطُ أحمدُ شَوقي غَضَباً عَلى بَعْضِ السّيَاسيينَ الأَتراكِ الذّينَ رَكَنوا إلى الرَّاحَةِ والدّعَةِ، وآثَرُوا تَسليمَ أَدِرنَةَ لِلْعَدوِّ الصَّلِيبِيّ بِحُجَّةِ أنَّ تَرْكَها لِلْعَدُوِّ خَيرٌ لِلأَتراكِ مِنَ الدّفَاعِ عَنها، يقولُ:

زَعَمُوكِ هَمًّا لِلْخِلافَةِ نَاصِباً وهَلْ المَمَالِكُ رَاحَةٌ ومَنَامُ؟
وَيَقُولُ قَومٌ : كُنْتِ أَشْأَمَ مَوْرِدٍ وأَرَاكِ سَائغَةً عَلَيكِ زِحَامُ
وَيَرَاكِ دَاءَ المُلْكِ نَاسُ جَهَالَةٍ بِالمُلْكِ مِنهُم عِلَّةٌ وسَقَامُ
لَو آثَرُوا الإصلاحَ كُنْتِ لِعَرْشِهِم رُكْناً عَلَى هَامِ النُّجُومِ يُقَامُ
وَهُمٌ يُقَيِّدُ بَعْضُهُم بَعْضاً بِهِ وقُيُودُ هَذَا العَالَمِ الأَوهَامُ
صُورُ العَمَى شَتَّى، وأَقْبَحُها إذا نَظَرَتْ بِغَيرِ عُيُونِهِنَّ الهَامُ
ولَقَد يُقَامُ مِنَ السُّيُوفِ، ولَيسَ مِن عَثَرَاتِ أَخْلاقِ الشُّعُوبِ قِيَامُ

يُعنِّفُ الشّاعرُ في هذه الأبياتِ حُكومةَ تركيا في ذلك الوقتِ والتي كان أغلبها من الاتحاديينَ، فقد آثرت هذه الحكومةُ الصُّلحَ وفضّلتِ التّنازُلَ عن أدرنةَ بدلاً منَ الدِّفاعِ عنها وتحريرِها، وليبرِّرَ هؤلاءِ مَوقِفَهُم المتخاذِلَ راحوا يَختلِقونَ ادِّعاءاتٍ واهيةً، وقد حاولَ الشّاعرُ فضحَ هؤلاءِ وتفنيدَ هذه التّبريراتِ الباطلةَ، مُؤكّداً فسادَ موقفِهِم، وضعفَ سياستِهِم، لِذَلكَ بدأَ الشّاعرُ وصفَ هذهِ الادّعاءاتِ بالزَّعمِ"زعموك هَمًّا لِلخِلافةِ"، وهوما يدلُّ على كَذِبِ موقفِهِم وعدمِ صِحَّتِهِ، ثُمَّ يُتبِعُ هذا الزَّعمَ الكاذِبَ بالسُّؤالِ الاستنكاريّ في الشَّطرِ الثّاني" وهَلْ المَمَالِكُ رَاحَةٌ ومَنَامُ؟" فهذا الاستنكارُ رفضٌ منَ الشّاعرِ لموقفِ هؤلاءِ المتخاذِلينَ، وتأكيدٌ من تجاربِ التّاريخِ أنّ سياسةَ الدُّولِ ورِعايتَها وصونَها ليسَ بالعملِ المريحِ، ولا يتمُّ بالتَّراخي، ولا يُدارُ من فَوقِ الأسِرَّةِ والوسائدِ، ثُمَّ

يستخدِمُ الشّاعرُ الأسلوبَ الحِجَاجِيَّ في دَحْضِ أَقَاوِيلِ هؤلاءِ المتخاذِلِينَ، واصفاً إياهم ب"قوم" بِصِيغَةِ النَّكرةِ تَنكيراً لهم لِسوءِ موقفِهِم، وللتّقليلِ منهم، فهذا الموقفُ لا يُمثِلُ مَوقِفَ الخليفةِ ولا موقفِ الجيشِ العثمانيّ، الذّي جاهدَ بعدَ ذلكَ وحرَّرَ المدينةَ، وبِجانبِ التَّنكيرِ والتَّقليلِ، يُضيفُ إليهم وصفاً ثالثاً وهو الجَهلُ بالسّياسةِ في البيتِ الثّالثِ، فهم" نَاسُ جَهَالَةٍ"، وبهم" عِلَّةٌ وسَقَامُ"، ويَشتَدُّ الغضبُ بشوقي فيصفهم وصفاً رابعاً فهم عُميَانٌ، قد أصابَهم الجهلُ السّياسيُّ بالعَمَى فلا يستطيعون أنْ يُمَيِّزوا بينَ القَرَاراتِ المفيدَةِ لِلأُمّةِ والقراراتِ المهلِكَةِ لها.

ويُنَدِّدُ الشَّاعِرُ بِالمتَاجِرِينَ بِاسمِ الدّينِ في الانتِقَامِ مِنَ المسلِمِينَ الآمِنِينَ، والتَّنكِيلِ بِالأبرياءِ مِنَ المدَنِيينَ، فارتَكَبُوا باسمِ المسِيحِ أَبشَعَ الجَرَائمِ، والمسِيحُ مِنهُم بَرَاءٌ، فَمَا كَانَ عِيسى عَلَيهِ السَّلامُ سَفَاحاً لِلدّمَاءِ، ولا كَانَ دَاعِياً لاستِبَاحَةِ الحُرُمَاتِ، وإنّمَا تَمَيَّزَت دَعوَتُهُ بِالتَّسَامُحِ والمحَبَّةِ والسَّلامِ، يقُولُ:

ويَحُثّهُ بِاسمِ الكِتَابِ أَقِسَّةٌ	نَشَطُوا لِمَا هُوَ في الكِتَابِ حَرَامُ
"عِيسَى" ، سَبِيلُكَ رَحْمَةٌ، ومَحَبَّةٌ	في العَالَمينَ، وعِصْمَةٌ، وسلامُ
مَا كُنْتَ سَفَّاكَ الدِّمَاءِ، ولا امرِأً	هَانَ الضِّعَافُ عَلَيهِ والأَيتَامُ
يا حَامِلَ الآلامِ عَن هَذا الوَرَى	كَثُرَت عَلَيهِ بِاسمِكَ الآلامُ
أَنتَ الذّي جَعَلْتَ العِبَادَ جَمِيعَهُم	رَحِماً، وبِاسمِكَ تُقْطَعُ الأَرْحَامُ
واليَومَ يَهْتِفُ بِالصَّلِيبِ عَصَائبُ	هُم لِلإِلَهِ وروحِهِ ظُلّامُ
خَلَطُوا صَلِيبَكَ والخَنَاجِرَ وللمُدَى	كُلُّ أَدَاةٍ لِلأَذَى وحِمَامُ

وبعد تأكِيدِ شوقي على الطّابِعِ الدّينيّ لِحربِ دولِ البلقانِ مع الخلافة العثمانيّة، فما حربُ البلقانِ إلّا امتدادٌ لِلحرُوبِ الصّليبيّةِ على بُلدانِ الإسلامِ طَمعاً فيها، وحِنقاً عليها، يَأخُذُ الشَّاعِرُ في الحَدِيثِ عَن جَرَائمِ جُيُوشِ تَحَالُفِ البُلقانِ التي تَنُمُ عَن تَعَصُّبٍ ذَمِيمٍ ضِدَّ الإسلامِ، وبُغضٍ دَفِينٍ لِلْمُسلِمِينَ، يَظهَرُ بِشِدَّةٍ كُلَّما تَرَاخَى المسلِمُون وتَرَاجَعَتْ قُوَّتُهُم، وتَشَتَّتَ جَمْعُهُم، يَقُولُ:

أَوَمَا تَرَاهُم ذَبَّحُوا حِيرَانَهُم	بَينَ البُيُوتِ كَأَنَّهُم أَغْنَامُ؟
كَمْ مُرْضِعٍ في حِجْرِ نِعْمَتِهِ غَدَا	ولَهُ عَلَى حَدِّ السَّيفِ فِطَامُ
وصَبِيَّةٍ هُتِكَتْ حَمِيلَةُ طُهْرِها	وتَنَاثَرَت عَن نَورِهِ الأَكَامِ
وأَخِي ثَمَانِينَ استُبِيحَ وَقَارُهُ	لَم يُغنِ عَنْهُ الضَّعْفُ والأَعْوَامُ
وجَرِيحِ حَرْبٍ ظَامِئٍ وَأَدُوهُ، لَم	يُعْطِفْهُم جُرْحُ دَمٍ وأُوَامُ
ومُهَاجِرِينَ تَنَكَّرَتْ أَوْطَانُهُم	ضَلُّوا السَّبِيلَ مِنَ الذُّهُولِ وهَامُوا
السَّيفُ إنْ رَكِبُوا الفِرَارَ سَبِيلُهُم	والنِّطْعُ إنْ طَلَبُوا القَرَارَ مُقَامُ
يَتَلَفَّتُونَ مُوَدِّعِينَ دِيَارَهُم	واللَّحْظُ مَاءٌ، والدِّيَارُ ضِرَامُ

يَرسُمُ شوقي في هذهِ الأبياتِ صُوراً لِمآسي المسلمينَ في أدرنةَ بعد أنْ دَنَّستها أقدامُ جيوشِ البلقانِ، فَهَذِهِ الجُثُودُ التي مُلِئت قُلوبُهُم كُرهاً وحقداً على الإسلامِ وأهلِهِ، لم تأخذْهُم رَحمةٌ ولا شفقةٌ بالمستضعفينَ من مُسلِمي أدرنةَ من أطفالٍ وشيوخٍ ونساءٍ وجَرحى. فالأطفالُ قد قُطِعوا على حَدِّ السَّيفِ بِقتلِهم أو بِقتلِ أُمّهاتِهم، والصّبيّاتُ الصَّغيراتُ قد هَتِكت أعراضُهُنَّ، والشُّيوخُ

الكِبارُ لم يُحترَم لهم وقارٌ، والجَرحَى لم يُداوهم بل وأدُوهم بِجِرَاحِهم، وصار النّاسُ في هَولٍ قد ضَلُّوا سبيلَ الفِرَارِ فلا يَدرونَ أينَ يفِرُّون، فهم حائرون بين موتِ الفرارِ و ذُلِّ البقاءِ.

ثُمَّ يَتَوَجَّهُ الشّاعرُ إلى مُخَاطبةِ"أَدِرْنَة" بِلُغةٍ تَجْمعُ بينَ فَجِيعَةِ الوَاقِعِ وعِزَّةِ الماضي، آمِلاً مِن ذَلِكَ أَنْ تَتَذَرَّعَ أَدِرنةُ بِالصَّبرِ، فَكُلُّ مُلكٍ زَائِلٍ، ثُمَّ يَشرَعُ الشّاعرُ في الحَدِيثِ عَنِ المظَاهِرِ الإسلامِيّةِ في المدِينةِ، وَكَأَنَّها بَادَت أَثَراً بَعدَ عَينٍ، فما عَادَ يُسمَعُ الأذانُ، وما عَادَت هُناكَ جُمَعٌ تَلُمُّ شَمَلَ المسلِمينَ في أَهمِّ مَظهَرٍ أُسبُوعيٍّ لِوحدَتِهِم، ثُمَّ يَكشِفُ عَمَّ أَصَابَ قُبُورَ الفَاتِحِينَ في المدِينةِ مِن خَرَابٍ ودَمَارٍ، بَعدَ مَا كَانت فِيهِ مِن عِزَّةٍ ومِنعَةٍ، يقُولُ:

صَبْراً أَدِرْنَةُ! كُلُّ مُلْكٍ زَائِلٍ	يَوماً، ويَبْقَى المَالِكُ العَلَّامُ
خَفَتَ الأَذَانُ، فَمَا عَلَيكِ مُوَحِّدٌ	يَسْعَى، ولا الجُمَعُ الحِسَانُ تُقَامُ
وخَبَتْ مَسَاجِدُ كُنَّ نُوراً جَامِعاً	تَمْشِي إِلَيهِ الأُسْدُ والآرَامُ
يَدْرُجْنَ في حَرَمِ الصَّلاةِ قَوَانِتاً	بَيْضَ الإِزَارِ، كَأَنَّهُنَّ حَمَامُ
وعَفَتْ قُبُورُ الفَاتِحِينَ، وفُضَّ عَنْ	حُفَرِ الخَلائفِ جَنْدَلٌ ورَخَامُ
نُبِشَتْ عَلَى قَعْسَاءِ عِزَّتِها، كَمَا	نُبِشَتْ عَلَى استِعْلائها الأَهْرَامُ

ويَختِمُ شوقيٌّ قَصِيدَتَهُ بِوصفِ حِصَارِ جُيُوشِ البُلقَانِ لأَدِرنَةَ الذِّي دَامَ خَمسةَ أَشهُرٍ، وَاجَهَت فيها المدينةُ كَوَارِثَ عِدَّةً، مَا بَينَ الدِّفَاعِ عَنِ المدِينَةِ والحِصَارِ إلى السّيُولِ الجَارِفَةِ والثُّلُوجِ المتَرَاكِمَةِ، إضَافَةً إلى الجُوعِ الذِّي أَخَذَ يَفتِكُ بِأبنَائها:

في ذِمّةِ التَّارِيخِ خَمْسَةُ أَشْهُرٍ	طَالَتْ عَلَيكِ ، فَكُلُّ يَومٍ عَامُ
السَّيفُ عَارٍ، والوَبَاءُ مُسَلَّطٌ	والسّيَلُ خَوفٌ ، والثُّلُوجُ رُكَامُ
والجُوعُ فَتَّاكٌ ، وفِيهِ صَحَابَةٌ	لَو لَمْ يَجُوعُوا في الجِهَادِ لَصَامُوا
ضَنُّوا بِعِرْضِكِ أَنْ يُبَاعَ ويُشْتَرَى	عِرْضُ الحَرَائِرِ لَيسَ فِيهِ سُوَامُ
ضَاقَ الحِصَارُ كَأَنَّما حَلَقَاتُهُ	فَلَكٌ ، ومقْذوفَاتُها أَجْـرَامُ
بِعْتِ العَدُوَّ بِكُلِّ شِبْرٍ مُهْجَةٌ	وكَذا يُبَاعُ المُلْكُ حِينَ يُرَامُ
مَازَالَ بَينَكِ في الحِصَارِ وبَينَهُ	شُمُّ الحُصُونِ ، ومِثْلُهُنَّ عِظَامُ
حَتَّى حَوَاكِ مَقَـابِراً ، وحَوَيتِهِ	جُثَثاً ، فلا غَبْنٌ ولا استِذْمَامُ

وُفِقَ الشَّاعرُ في خِتَامِ القَصِيدةِ أنْ يَخلِقَ في قُلوبِنا الأملَ في استِعَادَةِ"أَدِرْنَةِ" مِن أيدِي أعدائها، هذا الأَمَلُ مَثَّلَهُ الشَّاعِرُ في مُقَاوَمَةِ الأَحرَارُ مِن أبناءِ المدِينَةِ، فَسُقُوطُ المدينَةِ لَم يكنْ سهلاً، فقد باعَ المخلِصون أروَحَهُم دِفَاعاً حَرَائِرِ أَعراضِهِم وعن تُرَابِ وَطَنِهِم، فَمَا تَقَدَّمَ العَدُوُّ شِبراً إلّا على أرواحِ الشُّهدَاءِ الطّاهرةِ والتي أيضاً نَجحت قَبلَ استِشهادِها أَن تَقتُلَ الكَثِيرَ من جُنُودِ العَدوِّ، وكان مِن نتائج هذا القتلِ بين أهلِ المدينَةِ والحَاصِرِينَ أنَ تَحَوَّلَتِ المدِينَةُ إلى مَقَابِرَ، كَما تَحَوَّلَ الحِصَارُ إلى جُثَثٍ مِنَ الموتى.

وقد نَجَحَ الشَّاعرُ في تَصْوِيرِ شِدَّةِ الحِصَارِ وشِدَّةِ وَقْعِهِ وخُطُورَةِ نتائجِهِ على أَهلِ أَدِرْنَةَ مِن خِلال تشبيهِهِ لِلْحِصارِ بالحَلَقاتِ الفلكيّةِ(ضَاقَ الحِصارُ كَأَنَّما حَلَقَاتُهُ فَلَكٌ) فالحصارُ شَديدٌ وصُلْبٌ ومُحكَمٌ لا يُمكِنُ اختِرَاقُهُ والنُّفوذُ من خِلالِهِ، ليس هذا فحسب، بل لا يَتَوقَّفُ عَن ضَرْبِ المدينَةِ بِمَقْذُوفَاتٍ(أَجْرَامٍ) ضَخْمَةٍ ومُهْلِكَةٍ، والبيتُ أيضاً كِنَايةٌ عن كَثْرَةِ جُيُوشِ التَّحَالُفِ

واستِعْدَادِهِم لِلْحِصَارِ، كما أحسَنَ الشَّاعِرُ في تَوظِيفِهِ لِلتَّنَاغُمِ الإيقَاعيّ في البيتِ الثَّاني والذَي أعطَى صُورَةً مَهُولَةً عَنِ وَاقِعِ المعرَكَةِ ومَكانِها، وتَتَابُعِ المِحَنِ على المدِينَة، وهو ما يُعَبِّرُ عَنهُ المَثَلُ العَرَبِيُّ القَائلُ" إنَّ المصَائبَ لا تَأْتِي فُرَادَى".

ويكتب الشاعر محمد عبدالمطلب قصيدة (في حَرْبِ البَلْقَانِ)[٤٤] يُصَوِّرُ فيها بَشاعَةَ المعركةِ، فقد هال الشّاعرَ صوتُ المنايا وصَلِيلُ السُّيوفِ وغُبارُ المعركةِ الذّي أشبهَ بِكثَافتِهِ اللَّيلَ الحالِكَ، والرِّياحُ العَاتيةُ التي تَعصِفُ بالجميعِ، وصوتُ نيرانِ المدافعِ التي تُصَوَّبُ إلى الحُصونِ والمعَاقِلِ، فلا تُفرِّقُ في قَتلها وتدميرِها بينَ الأبرياء المسالِمينَ وبينِ الجُنُودِ المقاتلينَ، يقول:

صَرِيفُ المَنَايا أَمْ صَلِيلُ الصَّوَارِمِ ... ولَيلُ الرَّدَى أَمْ نَقْعُ تِلْكَ الملاحِمِ

تَمُوجُ بِهِ الهُوجُ الخُطوبُ وتَحْتَهُ ... صَوَاعِقُ نِيرَانٍ دَوَاهٍ دَوَاهِمِ

تَصرِفُها في كُلِّ حِصْنٍ ومَعْقِلٍ ... أَكُفُّ الرَّدَى عَن كُلِّ أَسْفَحَ جَاثِمِ

مَدَافِعُها عَمِيُ المَرَامِي إذا رَمَتْ ... لَمْ تَمِزْ ذَا شِكَّةٍ مِن مُسَالِمِ

وإنْ غَضِبَتْ في مَوقِفِ الهَوَلِ خِلْتَها ... بَنِي الجِنِّ ثَارَت فَاغِرَاتِ الحَيَاشِمِ

يَشُولُ بِأَشْلاءِ الكُمَاةِ لُعَابُها ... فَهُنَّ بِأَعْلَى الجَوِّ بينَ الحَوَائمِ

فَمِن هَامَةٍ تَهْوِي إلى جَنْبِ حِدْأَةٍ ... وحِذْعٍ تَرَاهُ طَائراً في القَشَاعِمِ

وبعدَ هذا الوَصفِ المهولِ والمخيفِ لِحربِ البقانِ، ينتقِلُ الشّاعرُ إلى الحَديثِ عن جَرائمِ جُيُوشِ الخُلفَاءِ، وما ارتكَبَتهُ مِن جَرائم ترفُضُها كُلُّ الأديانِ، وتأْبَاها كُلُّ النُفُوسِ السَّوِيَّةِ، فقد نالت جَرَائمُهُم النِّساءَ والأطفالَ، ولم يَسلَمْ منها أحدٌ، أو يَجِد في قُلُوبِهِم شيئاً مِنَ الإنسانيّةِ، يقولُ:

عَدُّوا طَوَرَهُم فَاستَضْعَفُوا لَيثَ غَابِهِ ... وعَاثُوا فَسَاداً في القُرَى والعَوَاصِمِ

يَسُومُونَ ضَعْفَاها العَذَابَ مُبَرِّحاً ... ويُغْلُونَ بَغياً في انتِهاكِ المحَارِمِ

فَمِن حُرَّةٍ تَبْكِي عَفَافاً هَفَتْ بِهِ ... يَدُ البَغْيِ مِن تِلْكَ الأَكُفِّ الظَّوَالِمِ

إذا صَرَخَتْ في الخِدْرِ لَمْ تَرَ نَاصِراً ... وإنْ تَسْتَغِثْ لَمْ تَلْقَ رَحْمَةَ رَاحِمِ

لقد تجاوز البلغارُ حُدودَهم، وخرجوا منَ الاستكانةِ والخُضوعِ إلى التَّجبُّرِ والاغترارِ، وشجَّعهم على جُرأتِهم وارتكابِ مَجَازِرِهِم في حقِّ المسلمينَ تَغَافُلُ اللّيثِ، وهي كنايةٌ عن حالةِ الضّعفِ التي أصابتِ الخلافةَ العثمانيةَ، وحالةُ الفرقةِ التي أبْتُلِيَ بها المسلمون، فلا تناصُرَ بينهم حتّى في حِمايةِ أعراضِ المسلماتِ.

ولَمْ يَكُن حَالُ الأطفالُ المسلِمينَ أَحسنَ حالاً مِنَ أُمّهاتِهِم، بل كان أَشَدَّ وأنكى، فلم يُؤثِّر ضَعفُهُم وبراءتُهُم في قُلُوب المجرمينَ، بل قتلوهُم بِكُلِّ وَحشِيّةٍ ودَناءَةٍ:

وطِفْلٍ يُعَانِي سَكْرَةَ الموتِ في الضُّحَى ... ويَكْرَعُ مِن كَأْسِ الرَّدَى غَيرُ هَائمِ

إذا ما بَكَتْهُ أُمُّهُ فَتَكَتْ بِها ... ذُبَابَةُ هِنْدِيٍّ مِنَ البِيضِ الصَّوَارِمِ

ثُمّ يَصِفُ لَنا وَقْعَ هَذه المشَاهِدِ المأسَويّةِ على نَفْسِهِ وعلى نفسِ كُلِّ مُسلمٍ حُرٍّ أَبِيٍّ:

بَوَاكٍ يُذِيبُ القَلْبَ رَجْعُ أَنِينِها ... وتُجْرِي لَها حُزْناً دُمُوعُ الغَمَائمِ

[٤٤]– محمد عبدالمطلب، ديوان محمد عبدالمطلب، ص٢٧١

ويَختمُ الشّاعرُ قصيدتَه بالدَّعوةِ إلى نُصرَةِ أدرِنَةَ ونُصرةِ المُستضعفِينَ مِنَ المسلمين، وهذا لن يكونَ كما ادَّعى بعضُ السّيَاسيين بالصُّلْحِ مَعَ دُوَلِ البلقانِ والتّنازُلِ لَهُم عَن أدرنةَ، وإنَّما يكون بحَدِّ السَّيفِ وبالأَخذِ بعناصر القُوَّةِ القَادِرَةِ على مُواجَهَةِ الطَّامِعِينَ في بلاد الإسلام:

فَلَبَّيكَ لَبَّيكُم، قَضَى السَّيفُ حُكْمَهُ ... ولَلسَّيفُ في يَومِ الوَغَى خَيرُ حَاكِمِ

ويا رُبَّ عَينٍ ضَلَّتِ الحَقَّ أَبْصَرَتْ ... هُنَا الحَقَّ مِنهُ بينَ حَدٍّ وقَائمِ

تَعَامَى بَنُو البُلْقَانِ عَنْ مَنْهَجِ النُّهَى ... لِحَوضِ عُبَابِ الفِتْنَةِ المَتَلاطِمِ

وأَغْرَى بِهِم أنّا حَفَظْنا عُهُودَهُم ... ولا عَهْدَ إلّا لِلخِفَافِ الصَّوَارِمِ

وينفعلُ الشَّاعرُ أحمدُ الكَاشِفِ لِحَرْبِ البلقَانِ وسُقُوطِ أَدرْنَةَ، فَيكتبَ ثلاثَ قَصَائد عن هذا المصَابِ الجَلَلِ الذّي أصَابَ دَارَ الخِلافَةِ، الأولى: يُرثِي فيها حالَ الخِلافَةِ، ويكشِفُ عن حُبِّهِ لَها، ورغبتِهِ في تَقديمِ روحِهِ فِدَاءً لها، ومَطلَعُها:

خُطُوبُكُم يا آلَ عُثمانَ جَمّةٌ ... لَكِنَّكُم أَقْوَى عَلَيها وأَقْدَرُ

تَوَزَّعَ قَلْبِي حُبُّكُم وهُوَ غَالِبٌ ... وحِقْدٌ عَلَى أَعْدَائِكم يَتَسَعَّرُ

أَجُودُ بِرَوحِي غَيرُ أَنَّ سَبِيلَها ... إلَيكُم كَمَ يَأْبَى الهَوَى مُتَعَذِّرُ[٤٥]

والثانية: يَتَحَدَّثَ عن الطَّابعِ الصَّليبيّ لِحُرُوبِ الدُّولِ الأوربيّةِ المتَعَاقِبَةِ مَعَ الدَّولَةِ الإسلاميَّةِ، فقد أيقنَ الشُّعراءُ المصريونَ أنّ السَّببَ الأصيلَ لهَذِهِ الحُروبِ إنّما هو الحِقدُ على الإسلامِ وأهلِهِ، ورغبتُهُم الدّائمةُ في إضعافِ الدَّولةِ العثمانيّةِ قَلبِ الخلافةِ ومركزِهِ، لِذَلِكَ نَجِدُ أحمدَ الكاشفِ يَستَفتِحُ قَصِيدتَهُ بالسُّؤالِ السَّاخِرِ والمستنكِرِ لِطبيعَةِ حَربِ البلقانِ والدَّوَافِعِ الحقيقيّةِ مِن ورائها، يقول:

صَلِيبِيّةٌ يا قَومُ أَمْ عُنْصُرِيّةٌ ... حُرُوبُكُمُ والدِّينُ هَذَا أَمِ الشِّرْكُ

وحِيرَانُكُم أَعْدَاؤُكُم أَمْ حُمَاتُكُم ... وأَعْدَاءُ عِيسَى المسلِمُونَ أَمِ التُّرْكُ

فَهَلْ كَانَ عِيسَى يَطْلُبُ الثَّأْرَ بِالحَنَا ... وهَلْ كَانَ مِن أَخْلاقِهِ البَغْيُ والفَتْكُ

أَقَرَّ بِأَضْغَانِ النُّفُوسِ مُلُوكُكُم ... ومَنْ كَانَ فِي شَكٍّ فَقَدْ ذَهَبَ الشَّكُّ

أَفِي كُلِّ بَرٍّ يَحْمِلُ الشَّرَّ جَحْفَلٌ ... وفِي كُلِّ بَحْرٍ يَرْتَمِي بِالأَذَى فُلْكُ[٤٦]

وتتوالى على مِصرَ الأخبارُ بِهَزِيمَةِ الدّولةِ العثمانيّةِ، وتتناقلُ الأسماعُ المذابحَ التي ارتَكَبَتْها جُيُوشُ البلقانِ ضِدَّ بَنِي الإسلامِ في أدِرنَةَ وغيرِها، فَتَعْتَمُّ النُّفُوسُ، وتتحوَّلُ الأَعيادُ إلى أحزَانٍ ومآتِمَ، إذ كَيفَ يَطِيبُ العِيدُ والعَدوُّ رَابِضٌ على أَدِرنَةَ المسلِمَةِ،هَكَذا سأل أحمد الكاشفِ العيدَ في قصيدتِهِ الثَّالِثةِ سؤال الجَرِيحِ المكْلُومِ:

بِأَيّةِ عِيدٍ أَنْتَ يا عِيدُ عَائدُ ... تَفِيضُ تَبَارِيحاً لَنَا أَمْ شَمَائلا

جَزَعْتُ مِنَ الأَنْبَاءِ حَتَّى كَأَنَّنِي ... أُلاقِي مِنَ الأَنْبَاءِ جَيشاً مُقَاتِلا

فَهَلْ غَادَرَ اللَّيْثُ الرَّهِيبُ عَرِينَهُ ... وأَسْلَمَ أَبْطَالُ الذِّمَارِ المَعَاقِلا

وخَانَتْ سُيُوفَ الفَاتِحِينَ أَكُفُّهُم ... وضَلَّتْ سَفِينُ الفَاتِحِينَ السَّوَاحِلا

---

[٤٥]– أحمد الكاشف، ديوان أحمد الكاشف، ج٢، ص٢٣

[٤٦]– أحمد الكاشف، ديوان أحمد الكاشف، ج٢، ٣٤

وهَلْ بَلَغَ البَيتَ الحَرَامَ حَدِيثُهُم وهَالَ حَجِيجاً حَولَهُ وقَبَائلا

وهَلْ عَلِمَ القَبْرُ الكَرِيمُ بِمَا جَرَى فَقَدْ بَاتَ مُهْتَزَّ الجَوَانِبِ سَائلا[٤٧]

وقد تَوجّهَ الشّاعرُ في أبياتِهِ إلى البيتِ الحَرامِ قِبلَةِ المسلمينَ، لِما لَهُ مِن مَكَانَةٍ مُقَدَّسةٍ في قُلُوبِ جميعِ المسلمِينَ، وإلى الحَجِيجِ أَكبرِ تَجَمُّعٍ إسلاميٍّ مِن شَتَّى بِقَاعِ الأرضِ، مُتَسائلاً ومُسَائلاً الجَمِيعَ، أَ لَمْ يَبْلُغْكُم مَصَابُ أدرنةَ؟، أَ لَمْ تَصِل إلى مَسَامِعِكُم مَذَابِحُ البلقانِ لإخوانِكُم المسلمِينَ؟ والقصدُ مِن هَذه التَّساؤلاتِ هُوَ التَّبليغُ مَعَ استنفَارِ واستِفزَازِ هِمَمِ المسلمِينَ وإثَارَةِ الحَمِيَّةِ في قُلُوبِهِم لِنُصرَةِ دَارِ الخِلافةِ. إنَّ في هذا دَليلٌ على إيمانِ الشَّاعرِ بِوظيفتِهِ ودَورِهِ في مُجتَمَعِهِ وبينَ أُمَّتِهِ، فهو قَلْبُ الأُمَّةِ النَّابِضُ، وصوتُها القَوِيُّ الجَهُورُ المُنَافِحُ عنها، والحَامِي لَها

والملاحظُ على القَصَائدِ الثَّلاثِشِدَّةُ احترَامِ الشَّاعر أحمدِ الكاشفِ لِلخِلافةِ العثمانيّةِ وتقديرِهِ لِخُلافَائها، فالشّاعرُ على الرّغمِ مِن آلامِهِ وفَجِيعَتِهِ لِما آلَ إليهِ حالُ الخلافةِ، وللهزائمِ المتتاليةِ للدولة العثمانيّةِ، فإنّهُ لم يُقَلِّلْ مِن قَدرِهِم، ولم يُوذِهِم بِوصفٍ فيهِ تأنيبٌ أو لَومٌ، بل نراهُ على العَكسِ مِن ذَلِكَ يُخَاطِبُهُم بإجلالٍ ويَصِفُهُم بِألقَابِهِم المحَبَّبَةِ، ويُضْفِي عليهِم مَهَابَةً، فَهُم " الفاتحِين"،و " سُيُوفُ الفاتحِين" و" غادراللَّيث"، "أبطال الدِّمار".

رابعا: رِثَاءُ آيا صُوفْيَا[٤٨]:

في نهاياتِ الحربِ العالميّةِ الأولى نجحتِ القوات الإنجليزيّةُ والفرنسيّةُ والإيطاليّةُ مِن دُخُول إسطنبول عاصمةِ الخلافةِ الإسلاميّةِ،فاحتلّتها، وفرّقت مجلسَ النُّوابِ ونفتِ البعضَ منهم، وحاصرت قصرَ يلدز، وباتَ الخليفةُ عاجزاً تَحتَ سَيطَرَةِ الإنجليز، فامتلأت قُلوبُ المصريينَ حُزناً لِمَصيرِ إسطنبولوقد احتلّتها جُيُوشُ الأعداءِ، وتقاسمها الإنجليزُ والفرنسيّون والإيطاليون، وسيطروا فيها على كلّ شيءٍ، وقد عبَّرَ الشّاعرُ حافظُ إبراهيم عن شُعُور المصريينَ أصدقَ تعبيرٍ في قصيدةٍ نظمها عقِبَ دُخُولِ الأعداء إسطنبول بعنوان(أَيَا صُوفْيَا)[٤٩]

(أياصُوفيَا) حَانَ التَّفَرُّقُ فَاذْكُرِي عُهُودَ كِرَامٍ فِيكِ صَلُّوا وسَلَّمُوا

إذا غُدْتِ يَوماً لِلصَّلِيبِ وأَهْلِهِ وحَلَّ نَوَاحِيكِ المَسِيحُ ومَرْيَمُ

وذُقَّتْ نَوَاقِيسٌ وقَامَ مُزَمِّرٌ مِنَ الرُّومِ في مِحْرَابِهِ يَتَرَنَّمُ

فَلا تُنْكِرِي عَهْدَ المَآذِنِ إنَّهُ عَلَى اللهِ مِن عَهْدِ النَّوَاقِيسِ أَكْرَمُ

الأبياتُ في مُجْمَلِها مُناجَاةٌ خَافِتَةٌ مِنَ الشَّاعِرِ إلى العزيزةِ على قُلُوب المسلمِينَ(أياصوفيا)، فالشاعر يُناديها بِحُنُوٍ ودِفءٍ وحَجَلٍ أيضاً، ويبدو ذلك مِن مُفرداتِهِ وتَراكِيبِهِ مِثل: (نِدَائِهِ، وحان التَّفرقُ، واذكُرِي، عُهُودَ كِرامٍ، فلا تُنكِرِي عَهدَ المآذِنِ)، وكَذلكَ استخدامُهُ لِلفِعلِ المبنِيّ لِلمَجهُول في(إذا غُدْتِ، وذُقَّتْ نَوَاقِيسُ) وهو ما يُفيدُ الجَبَرَ وعَدَمَ الاختيارِ، ولا شَكَّ أنَّ هَذِهِ

---

[٤٧]- أحمد الكاشف، ديوان أحمد الكاشف، ج٢، ص٢٥

[٤٨]- صَرحٌ دينيٌّ مَهيبٌ يُقَدّسُهُ المسلمون والنّصارى على السّواء، فهو من أعظم وأكبر كنائس النّصارى الأرثوذوكس طوال تسعمئة عامٍ، بُنِيَ بأمرِ منَ الأمبروطور البيزنطيِّ يوستينيانوس الأول، وظلّلت تُمثّل الكنيسة الرسمية للدولة البيزنطية وجوهرة عاصمتها القسطنطينية، إلى أنّ فتحها السلطان العثماني المجاهد محمد الفاتح عام ١٤٥٣م، فغيّر القسطنطينية إلى إسطنبول، وصلّى في كنيسة آياصوفيا وحوّلها إلى مسجد يرمز إلى قوّة الدولة العثمانية وسيطرتها، وظلت كذلك إلى سقطت الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال أتاتورك الذي منع إقامة الشعائر الإسلامية فيها منذ ١٩٣١، وحوّلها إلى متحف سنة١٩٣٥ يضم آثاراً إسلامية ومسيحية.

[٤٩]- حافظ إبراهيم، ديوان حافظ إبراهيم، ص٤٠٢-٤٠٣

المَناجَاةَ الخَافِتَةَ، وهَذِهِ النَّبْرَةَ التي هِي أَقرَبُ لِلهَمسِ تُنَاسِبُ الحَالَةَ النَّفسِيَّةَ التي نَظَمَ الشَاعرُ قَصِيدَتَهُ تَحتَ وَقْعِها، فالشَّاعرُ في حالةٍ مِنَ الحُزنِ والانكِسارِ والإحباطِ وهو ما يحتاجُ إلى الحِوارِ الهامِسِ لِتَخْفِيفِ آلامِ المصَابِ ولِلتَنفيثِ عَنِ النّفسِ المكْلُومَةِ.

واستِكمالاً لِهَذِهِ المناجَاةِ يَتوجَّهُ الشَّاعرُ في بَقِيَّةِ القَصِيدةِ إلى رَبِّهِ، مُتضرِّعاً إليهِ ومُستَغِيثاً بِهِ أنْ يَحمِيَ المقَدَّساتِ الإسلاميّةَ مِن فُجْرِ الصَّليبيين، فَمازَالَت مَسَاجِدُ المسلمِينَ عَامِرةً بالمصَلِّينَ والحُفَّاظِ والقُرَّاءِ والذّاكِرينَ:

تَبَارَكْتَ (بَيتُ المَقْدِسِ) جَذْلانُ آمِنٌ	ولا يَأْمَنُ (البيتُ العَتِيقُ) المُحَرَّمُ
أَيُرْضِيكَ أَنْ تَغْشَى سَنَابِكُ خَيْلِهِم	حِمَاكَ وأَنْ يُمْنَى (الحَطِيمُ) و(زَمْزَمُ)؟
وكَيفَ يَـذِلُّ المُسلِمُونَ وبَينَهُـم	كِتَابُكَ يُتْلَى كُـلَّ يَومٍ ويُكْـرَمُ؟
نَبِيُّكَ مَحْزُونٌ وبَيتُكَ مُطْــرِقٌ	حَيَـاءً وأَنْـصَـارُ الحَـقِيقَـةِ نُـوَّمُ
عَـصَينَا وخَالَفْنا فَعَاقَبْتَ عَادِلاً	وحَكَّمْتَ فِينا اليَومَ مَن لَيسَ يَرْحَمُ

أكثَرَ الشَّاعرُ في أبياتِهِ مِنَ الكِنَايَاتِ، فقد كَنَّى بـ (بيتِ القُدسِ) عَن مَعَابِدِ النَّصَارَى، وبـ (البيتِ العَتِيقِ) عن مَعَابِدِ المسلمينَ، فهو يقولُ: إنَّ مَعَابِدَ النَّصَارَى في فَرَحٍ وأَمْنٍ، ومَعَابِدَ المسلمينَ في خَوفٍ وفَزَعٍ، وقد ذَهَبَ الشَّاعرُ إلى أنَّ سُقُوطَ الأَسِنَّةِ في أيدي الإنجليزِ سَيمتدُّ خَطَرُهُ إلى البيتِ الحَرَامِ، فَسُقُوطُ الدَّولةُ العُثمانيَّةِ يَعنِي غِيَابَ القُوَّةِ الحَامِيَةِ والمدَافِعَةِ عَن مُقَدَّسَاتِ المسلمينَ وعلى رأسِها البيتُ العَتِيقُ، وهذا ما جَعَلَ الشّاعرَ يَستَغِيثُ بِرَبِّهِ، مُستخدِماً في حِوَارِهِ الاستِغَاثي أُسلوبَ الاستفهامِ الإنشائيّ والذِي يُفِيدُ شِدَّةَ التَّذَلُّلِ والتَّضَرُّعِ إلى اللهِ لِحِمَايَةِ تِلْكَ المقَدَّساتِ.

ولَم يَنسَ الشَّاعِرُ في تَضَرُّعِهِ إلى رَبِّهِ أنْ يَذْكُرَ ويُرجِعُ الشَّاعرُ سَبَبَ هَذِهِ الهَزَائِمِ المتَعَاقِبَةِ والمِحَنِ المتَتَابِعَةِ على الأُمَّةِ إلى عِصيانُ الخَالقِ ومُخالَفَةُ شَرِيعتِهِ المستقيمةِ، بل والمجَاهَرَةُ بِذَلكِ، فَما كانَ مِن عَدلِهِ إلّا أنْ سَلَّطَ علينا مَن استبدَلْنا شَرِيعَتَهُم بِشَرِيعتِنا، واتّخَذْناهُم أئمَّةً لنا، لِيُمْعِنَ عَزَّ وجَلَّ في إذلالِنا وَكَشْفِ الحَقيقةِ أمامَ أعيننِا.

ويَنظِمُ أحمدُ شوقي قَصِيدَةً بِعنوانِ(مَسجِدُ أيَا صُوفْيَا)[٥٠]وهي تَختَلِفُ في بِنيَتِها وأَفكَارِها عن قصيدةِ حَافظِ إبراهيم، وهذا الاختلافُ عائدٌ إلى طبيعةِ الشَّاعرينِ، فبينما تَمَيَّزَ حافظٌ في فن الرّثاءِ، نَجدُ شَوقيًّا تَمَيَّزَ في فَنِ الوَصْفِ، وهذا يَعُودُ إلى اختلافِ بيئةِ الشّاعرينِ وثَقَافَتِهِما، فَعَلى حِينِ تَرَبَّى حافظٌ في بيئةٍ مصريَّةٍ بَسيطَةٍ عَانى فِيها كُلَّ ما يُعانِيهِ بُسَطَاءُ مِصرَ وفقراؤها، نَجِدُ شوقيًّا على العكسِ مِن ذلكَ، فقد تَرَبَّى بين القُصورِ ومعَ الأُمَرَاءِ، كما أنَّ ثَقَافةَ حافظٍ مِصريّةٌ خالصةٌ، فالرَّجُلُ لم يُسافِرْ أبعدَ مِنَ السُّودانِ، أمَّا شوقيٌّ فقد سافرَ إلى فرنسا ودرس الحُقوقَ في السُّربون، وشاهدَ مسارِحَها، وزار مَتَاحفَها، وقرأ لِشُعرائها وتَأَثَّرَ بِهِم، هَذهِ النَّشأةُ وتلكَ الثّقافةُ جَعلت شوقيًّا يَستوقِفُهُ الوصفُ كَثيراً، وقد ظَهَرَ ذلكَ واضحاً في رِثائهِ لأيا صوفيا فقد وَصَفَها وصفا مُمتِعاً ألقى عليها بَهاءً وجلالاً بِمّا جَعَلَها مَوطِناً للصِّراعِ الدّائمِ بينَ المسلمينَ والنَّصَارَى، يقولُ في افتِتَاحِ القَصِيدةِ:

كَنِيسَةٌ صَارَتْ إلى مَسْجِدِ	هَـدِيَّةُ السَّيِّدِ لِلسَّيِّدِ
كَانَتْ لِعِيسَى حَرَماً ، فَانْتَهَتْ	بِنُصْرَةِ الرُّوحِ إلى أَحْمَدِ

ما أبدعَ هذا الاستِهلالُ، وما أليَقَهُ بِدينِ الإسلامِ، وبِعَظَمَةِ حُكّامِهِ الصَّالِحِينَ، فالشَّاعرُ يُقِرُّ أنّ"أياصُوفيَا" كَنيسَةٌ قد تَحَوَّلت إلى مَسجِدٍ بِرِضاءِ عيسى عليهِ السَّلامُ، وبدونِ اغتِصابٍ وانتِهاكٍ لِحُقُوقِ وحُرُماتِ أهلِها، فقد أهداها إلى سيّدنا محمدٍ–عليه الصّلاةُ والسّلامُ– لأنّ الإسلامَ هو الدّينُ المستقيمُ، وأتباعُهُ على الهُدى، فَهُم أولى بالكَنيسةِ وبالصّلاةِ فيها من غيرِهِم الذّين حرّفوا عقيدتَهُم، وابتعدوا عن تعاليمِ نبيِّهِم، ثُمَّ يأتي بالتَّركيبِ الإضافيّ الموحي بِتَمَيُّزِ الإسلامِ" بِنُصْرَةِ الرُّوحِ". فالرّوحُ في الإسلامِ

[٥٠]– أحمد شوقي، الشوقيات، مجلد١، ج٢،ص٢٥

ارتَقَت إلى أعلى المدَارجِ، وتَخلَّصت من أسرِ المادَّةِ، وصارتِ الغلبةُ في جوهرِ الإسلامِ وبنيَةِ الإنسانِ المسلِمِ للرّوحِ، وهو ما مَثَّلَ سُمُوًّا لِلنَّظرَةِ الإنسانيّةِ في المفهومِ الإسلاميّ والحضارةِ الإسلاميّةِ، على خِلافِ الحضارةِ الغربيّةِ التي اهتمَّت بالمادّةِ وقدَّمت مَنفعَتها وإشباعَ رَغبَاتِها على حِسابِ الغَيرِ وحُقُوقِهم.

ثُمَّ يَنتقِلُ الشَّاعرُ إلى وَصفِ أيا صُوفيا، كاشفًا عن عَظَمَةِ هذا البناءِ وفَخَامَتِهِ التي أَشبَهَت بِناءَ الهَرَمِ الأكبرِ أحد عجائب الدُّنيا قَديماً وحديثاً، وهو ما يَدُلُّ على العِزِّ والقُوّةِ التي وصلَ إليها بُنَاةُ أياصوفيا، فيقول:

شَيّدَها الرُّومُ وأَقْيَالُهُـم ... عَلَى مِثَالِ الهَرَمِ المُخَلَّدِ

تُنْبِئُ عَنْ عَزٍّ ، وعَنْ صَولَةٍ ... وعَلَى هَوًى لِلدِّينِ لَم يَخْمُدِ

وبعدَ أنْ ينتهيَ منَ وصفِ أيا صُوفْيا ينتَقِلُ إلى فَتحِ السُّلطانِ محمدُ الفاتِحِ لِلأسِتَانةِ، فيتحدَّثُ عن صِفَاتِ السُّلطانِ وأَخلاقِهِ النَّبيلَةِ، وعن جِهَادِ العُثمانيين المسلمينَ، ومُقَاوَمَةِ الرُّومِ وتَضحِيَتِهِم في الحِفَاظِ عليها:

قَدْ جَاءَها (الفَاتِحُ) في عُصْبَةٍ ... مِنَ الأُسُودِ الزُّكَّعِ ، السُّجَّدِ

رَمَى بِهِم بُنْيَانَها ، مِثْلَما ... يَصْطَدِمُ الجَلَمَدُ بِالجَلْمَدِ

فَكَبَّرُوا فِيها ، وصَلَّى العِدَا ... واختَلَطَ المَشْهَدُ بِالمَشْهَدِ

ومَا تَوَانَى الرُّومُ يَفْدُونها ... والسَّيْفُ في المُفْدِيِّ والمُفْتَدِي

فَخَانَهَا مِن قَيصَرٍ سَعْدُهُ ... وأُيِّدَتْ بِالقَيصَرِ الأَسْعَدِ

بِفَاتِحٍ ، غَازٍ ، عَفِيفِ القَنَا ... لا يَحْمِلُ الحِقْدَ ، ولا يَعْتَدِي

أَجَارَ مَنْ أَلْقَى مَقَالِيدَهُ ... مِنْهُم ، وأَصْفَى الأَمْنَ لِلْمُرْتَدِي

ونَابَ عَمَّا كَانَ مِن زُخْرُفٍ ... جَلالَةُ المَعْبُودِ في المَعْبَدِ

وصفَ الشّاعرُ جيشَ الفَاتحِ بالأُسودِ دَلالَةً على القُوّةِ والشّجاعَةِ والإقدامِ، فهُم لا يَهابُون أحداً، ولا يُثنِيهِم عن هَدَفِهِم مَانِعٌ، ثُمَّ أَضَافَ إلى صِفَةِ القُوّةِ صِفَةَ الإيمانِ، فهُم سُجَّدٌ رُكَّعٌ يَبتغُونَ فضلَ اللهِ ونُصرَةَ دِينِهِ، والبيتُ الثّاني كِنايةٌ عن قُوّةِ الفريقَينِ، وقد أجاد الشّاعرُ في استعمالِ الفعلَ"رمى" وهو استعارةٌ مكنيّةٌ، حيثُ شَبَّهَ جيشَ الفاتِحِ بالكُتْلَةِ أو الصَّخرةِ التي أمسكها الفاتحُ وألقى بها بِناءَ أياصوفيا، وهو يُفيدُ قُوَّةَ الفاتِحِ وجَيشِهِ، وقُوَّةَ تَماسُكِهِم، وشِدَّةِ طَاعَةِ الجيشِ لأَوَامرِ السُّلطانِ، كما يُفيدُ سُرعَةَ جيشِ الفاتِحِ ومُبَاغَتَتِهِ لِلجيشِ البيزنطيِّ، والشَّطرُ الثّاني" يَصْطَدِمُ الجَلَمَدُ بِالجَلْمَدِ" كِنايةٌ عن قُوَّةِ المواجَهَةِ وشَرَاسَةِ القِتالِ، فقد شبّه الجَيشينِ بالصّخرتَينِ اللّتينِ اصطَدمتا.

ثُمَّ يُشيرُ الشَّاعِرُ إلى حَقِيقَةٍ أَكَّدَتها أحداثُ الماضي، ومازالت تُؤَكِّدُها الأحَدَاثُ الجَارِيةُ، وهي أنَّ أُروبّا لَنْ تَنسَى القسطنطينيّةَ كَمَدِينَةٍ مَركزِيَّةٍ في تاريخِهِم، كما أنّهُم لن ينسوا فتحَ المسلمين لها وأخذها عُنْوَةً من أيديهم فسيُحاولون الثّارَ واستردَادَ المدينَةِ إليهِم كما فعلوا للأَسفِ بِمَدينَةِ(القُدسِ) التي أَصْبَحَتْ تَحْتَ سَيطَرَةِ الكَيانِ الصُّهيونِيّ، ولم يَتَقَبّلْ فِكرُهُم الحَاقِدُ حتَى الآنَ استقرارَ دولةٍ إسلاميَّةٍ على أراضٍ أروبيّةٍ، لذَلكَ لم يَتَوقَّفْ كَيدُهُم لِلدَّولةِ العُثمانيةِ قديماً، ولن يَتَوقَّفَ كَيدُهُم لِلجُمهوريةِ التّركِيَّةِ حَديثاً، وسيظلُّ الصِّراعُ أبديًّا، يَشْتَدُّ ويعلو كُلما وَجَدَتِ الدُّولُ الأروبيّةُ الفرصَةَ لِذلك:

فَيَا لِثَأْرٍ بَيننا بَعْـدَهُ ... أَقَامَ ، لَمْ يَقْرُبْ ، ولَمْ يَبْعُدِ

بَاقٍ كَثَأْرِ (القُدْسِ) مِنْ قَبْلِهِ ... لا نَنْتَهِي مِنْهُ ، ولا يَبْتَدِي

فَلا يَغُرَّنَّكَ سُكُونُ الملا ... فَالشَّرُّ حَولَ الصَّارِمِ المغْمَدِ

لَنْ يَتْرُكَ الرُّومُ عِبَادَاتِهِم ... أَو يَنْزِلُ التُّرْكُ عَن السُّؤدَدِ

هَذا لَهُم بَيتٌ عَلَى بَيتِهِم ... ما أَشْبَهَ المسْجَدَ بِالمسْجِدِ

أكثرَ الشّاعرُ مِنَ المقابلاتِ في أبياتِهِ في مِثلِ" لَمْ يَقْرُبْ ، ولَمْ يَبْعُدِ"، و" لا نَنْتَهِي مِنْهُ ، ولا يَبْتَدِي"، و" لَنْ يَتْرُكَ الرُّومُ عِبَادَاتِهِم، أَو يَنْزِلُ التُّرْكُ عَن السُّؤدَدِ"جاءت هذهِ المقابلاتُ بعدَ أنْ أثبتَ الشَّاعرُ دَمُومَةَ الصِّراعِ وبَقاءَ الثَّأرِ بين المسلمين والنّصارى، لِتُؤَكِّدَ بَقاءَ العداوَةِ واشتِعالَها الدّائمَ في قُلوبِ الأوروبّيين. فالأوربّيون لن ينسوا هزيمَتَهم، ولن يَتَوقّفوا عن استرجاعِ أياصوفيا، كما أنّ المسلمينَ لن يتركوا دينَهم، ولن يتنازلوا عَمّا حقّقوه من مجدٍ، فقد صارت أياصوفيا رمزاً من رُمُوزِ الإسلامِ ومعلماً من معالِمِهِ.

ويختِمُ الشّاعرُ قَصِيدَتَهُ بالتّحذيرِ مِن خُطُورةِ استردَادِ أوربّا لِمَدِينَةِ إسطنبول، فإذا تَمَّ لَهُم هذا–لا قَدّرَ اللهُ أبداً– فسيكونُ هذا اليومُ أسوداً على الوَرَى، مَهُولاً مُفزعاً كَأَنَّهُ يوم السّاعةِ، تَشيبُ فيه الوِلدانِ، وتنزَعِجُ الأمواتُ في مَرَاقِدِها، ثُمَّ يَتَوجَّهُ الشّاعِرُ إلى رَبّهِ مُستَغيثاً بِهِ ومُستَنصِراً:

فَإِنْ يُعَادُوا في مَفَاتِيحِهِ ... فَيَا لِيَومٍ لِلْوَرَى أَسْـوَدِ

يَشِيبُ فِيهِ الطِّفْلُ في مَهْدِهِ ... ويُزْعَجُ المَيتُ مِنَ المرْقَدِ

فَكُنْ لَنا اللَّهُمَّ في أَمْسِنا ... وَكُنْ لَنا اليَومَ ، وكُنْ في غَدِ

لَولا ضَلالٌ سَابِقٌ لَم يَقُم ... مِن أَجْلِكَ الخَلْقُ ولَمْ يَقْعُدِ

فَكُلُّ شَرٍّ بَينَهُم أو أَذَى ... أَنْتَ بَرَاءٌ مِنهُ طُهْرُ اليَدِ

سادسا: إلغاءُ الخِلافةِ العُثمانيَّةِ ورِثاءُ الشُّعراءِ لها:

استيقظَ العالمُ الإسلاميُّ فجرَ الثّاني من مارس سنة ١٩٢٤م على خبرِ إلغَاءِ الخِلافةِ العُثمانيّةِ، وقد أحدثَ إلغاءُ الخلافةِ الإسلاميّة دَوِيًّا في العالمِ الإسلاميّ وفي العالمِ أجمعَ، خَاصَّةً في وقتٍ كانَ العالمُ الإسلاميُّ يَئِنُّ تحت وطأةِ الاستعمارِ الصّليبيِّ الخبيثِ، وكانَ في أَحوجِ ما يَكونُ إلى هذا الرِّباطِ المعنَوي الذّي يَجمعُ الأمّةَ ويَزرعُ في قُلُوبِ أبنائها أملَ الخلاصِ من قَبْضَةِ الأوربِّيينَ؛ فَالتَّخَلُّصُ مِنَ الخلافةِ يَعني تَجريدَ المسلمينَ وأراضِيهم مِن سُلطَةٍ رَاشِدَةٍ يَحْسَبُ لَها الأعداءُ ألفَ حِسابٍ، لقد كانتِ الخلافةُ طِيلةَ ثلاثةَعشرَ قَرناً هي السِّياجُ الذّي يَحمي الأُمّةَ ويَجمَعُ كَلِمَتَها ضِدَّ الأَخطَارِ التي تَحِيقُ بها.

تَفَاعَلَ الشُّعراءُ المصريونَ معَ سُقُوطِ الخلافةِ، فكتبَ أحمدُ شوقي قَصيدَةً بِعنوَانِ(خِلافَةُ الإسلامِ)[٥١]، رَثَى فِيها الخِلافَةَ ونَدَّدَ بِقَرارِ إلغائها، وهاجَمَ أصحابَ القرارِ، ونَدِمَ عَن مَدحِهِ لهم قبلَ ذلكَ عندما تَوَسَّمَ فيهم الخيرَ، وظنَّ منهم الرَّجاءَ، وطالبَ الذّينَ ألغوا الخلافةَ أن يَعُودوا إلى رُشدِهم، ودعا الجميعَ إلى إسداءِ النُّصحِ إلى مُصطفى كمال وصَحبِهِ بالإبقاءِ على الخلافةِ والحِفَاظِ على ذلكَ الرِّباطِ الدِّينيِّ الجامِعِ لأبناءِ الإسلامِ، ثُمَّ حَذَّرَ مِن أنَّ سُقُوطِ الخِلافةِ سيفتَحُ أبوابَ الفتَنِ بينَ المسلمِينَ بِمَّا يَعني صُعُوبةَ التِئامِ جُرحِ الأمّةِ واستِحالةِ عَودَتِها إلى سَابِقِ مَجدِها ومَكانَتِها، يستهلُّها قائلا:

[٥١]– أحمد شوقي، الشّوقيات، ج١، ص١٠٥

عَادَتْ أَغَانِي العُرْسِ رَجْعَ نُوَاحِي ... ونُعِيتِ بَينَ مَعَالِمِ الأَفْرَاحِ

كُفِّنْتِ فِي لَيلِ الزِّفَافِ بِثَوبِهِ ... ودُفِنْتِ عِنْدَ تَبَلُّجِ الإِصْبَاحِ

شُيِّعْتِ مِنْ هَلَعٍ بِعَبْرَةِ ضَاحِكٍ ... فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وسَكْرَةِ صَاحِ

استهلَّ الشَّاعرُ القَصِيدةَ بِنَدْبِ الخلافةِ بَعَدَ الإعلانِ عن وَفَاتِها فِي ثَوبِ عُرسِها، وهي صورة تَحملُ الألمَ وتُثيرُ الحَسرةَ وتُهيِّجُ الوجَعَ على فُقدانِ العَروسِ(الخلافة)، ووصفها بالعروس يدلُّ على إيمانِ الشَّاعرِ وتمسُّكِهِ بالخلافةِ فِي صورتِها الجَميلةِ وثوبِها الفتَّانِ، فالخلافةُ فِي نظرِهِ شابّةٌ دائماً مُتجَدِّدةٌ دائما وعلى أبنائها المخلصينَ أنْ يُحافِظوا عليها هكذا، وليس لهم أنْ يُشوِّهوها ويُسئوا إليها،ويُلاحظُ على الأبياتِ غلبةُ الجُمل الفعليّةِ وهو ما يُناسِبُ الحَرَكَةَ فِي الإعلانِ عنِ الوفاةِ والنَّعي والتّكفِينِ والدَّفنِ والتَّشييعِ، كما آثَرَ الشّاعرُ الفِعلَ الماضي وهو ما يَدُلُّ على انتهاءِ الأمرِ وتبييتِ النِّيَّةِ المسبَقةِ له، كما آثرَ الشاعرُ استخدامَ الفعل الماضي فِي صورةِ المبنِيِّ لِلمَجهولِ إفادةً لِلعمومِ ولِعَدَمِ الرَّغبَةِ فِي ذِكرِ مَن قَامَ بذلكَ، وقد أحسنَ الشّاعرِ فِي ذِكرِهِ لِوقتِ الدَّفنِ عِندَ(تَبَلُّجِ الإصباحِ) وهو ما يُفيدُ سُرعةَ الدَّفنِ والعَجَلةَ فِي التَّخَلُّصِ مِنَ الجُثْمانِ قَبلَ إفَاقَةِ النَّاسِ مِن سُباتِهِم، وما يدلُّ على التَّدبيرِ و التَّخطيطِ المسبقِ للأمرِ، فالأمرُ قَد دُبِّرَ لَهُ بِلَيلٍ، والبيتُ الثَّالِثُ فِي جُملتِهِ كِنايَةٌ عن هَولِ الصَّدمَةِ ووقعِها على المسلمينَ، وهو صورة مُتكاملةٌ تَنقلُ لنا حالَ المسلمينَ عِندَ سماعِهم بِسقوطِ الخلافةِ، فهُم فِي حالةِ عدمِ اتِّزانٍ لا يَدرونَ ماذا يَفعلون، غيرُ مُصَدِّقينَ لِلخبرِ، فَبعضُهم يَظهَرُ فِي حالةٍ بَلهاء، يبكي ويضحكُ فِي آنٍ، لا يستطيعُ عقلُه أنْ يستوعِبَ الحدثَ، واستخدمَ الجارَ والمجرورَ والمضافَ إليهِ فِي(فِي كلِّ نَاحِيَةٍ) لِيزيدَ من انتشارِ هذا فِي أرجاءِ الخلافةِ، ولِيدلَ على حالةِ الضَياعِ التي أصابتِ المسلمين، وبعضُهم سَكرانٌ كالمِحمُورِ، أو كَمَن فقدَ صَوابَهُ لِشِدَّةِ المِصابِ وفُجَائِيَتِهِ.

ثُمَّ يُؤَكِّدُ الشّاعرُ حَزنَ المسلمينَ فِي أرجاءِ الخلافةِ، فالأحزانُ عامّةٌ والمآتمُ مَنصُوبَة:

ضَجَّتْ عَلَيكِ مَآذِنٌ ، ومَنَابِرٌ ... وبَكَتْ عَلَيكِ مَمَالِكٌ ، ونَوَاحِ

الهِنْدُ وَالِهَـةٌ ، ومِصْرُ حَزِينَةٌ ... تَبْكِي عَلَيكِ بِمَدْمَعٍ سَحَّاحِ

والشَّامُ تَسْأَلُ ، والعِرَاقُ ، وفارسٌ ... أَ مَحَا مِنَ الأَرْضِ الخِلافَةَ مَاحِ

وأَتَتْ لَكِ الجُمَعُ الجَلائِلُ مَأْتَماً ... فَقَعَدْنَ فِيهِ مَقَاعِدَ الأَنْوَاحِ

ثُمَّ يَتَحَدَّثُ شَوقي عن قِيمةِ الخلافةِ وأهَمِّيَتِها فِي حَياةِ المسلمين وخُطُورةِ سُقُوطِها وإزالتِها مِنَ الوجودِ، ويَحَزَنُ الشَّاعرُ لِقرارِ الإلغاءِ ويعجبُ مِن أصحابِ القرارِ كيف يقتلون الخلافةَ وهُم مَن دَافَعَ عن تركيا، وحمى الوطنَ، وطردَ العِدى؟!

يا لَلرِّجَالِ لِحُرَّةٍ مَـوءودَةٍ ... قُتِلَتْ بِغَيرِ جَرِيرَةٍ وجُنَاحِ

إنَّ الَّذينَ أَسَتْ جِرَاحَكِ حَزْبُهُم ... قَتَلَتْكِ سِلْمُهُمُو بِغَيرِ جِرَاحِ

هَتَكُوا بِأَيدِيهِم مُلاءَةَ فَخْرِهِم ... مَوْشِيَّةً بِمَوَاهِبِ الفَتَّاحِ

نَزَعُوا عَنِ الأَعْنَاقِ خَيرَ قِلادَةٍ ... ونَضَوا عَنِ الأَعْطَافِ خَيرَ وِشَاحِ

حَسَبٌ أَتَى طَولُ اللَّيَالِي دُونَه ... قَد طَاحَ بينَ عَشِيةٍ وصَبَاحِ

وعَلاقَةٌ فَصِمَتْ عُرَى أَسْبَابِها ... كَانَتْ أَبَرَّ عَلائقِ الأَرواحِ

جَمَعَتْ عَلَى البَرِّ الحُصُورَ ، ورُبَّما ... جَمعَتْ عَلَيهِ سَرَائرَ النَّزّاحِ

نَظَمَتْ صُفُوفَ المسلمينَ وخَطْوَهم ... فِي كُلِّ غُدْوَةِ جُمْعَةٍ ورَوَاحِ

بَكَـتِ الصَّلاةُ وتِلكَ فِتْنَةُ عَابِثٍ بِالشَّرْعِ ، عِرْبِيدِ القَضَاءِ ، وَقَـاحِ

تُسيطِرُ على الشَّاعرِ في هذه الأبياتِ حالةٌ مِنَ التَّعجُّبِ والاستِغرابِ مِن قِيامِ حُماةِ تُركيا بإسقَاطِ الخلافةِ، وهي عنده مُفارَقَةٌ كبيرةٌ، فقد ظنَّ الشّاعرُ في قَصائدَ أُخرى لَهُ أنَّ هؤلاءِ الحُماةَ هُم أكثرُ النّاسِ حِرساً على الخلافةِ، وأنّهُم جاءوا ليردُّوا لِلخلافةِ شبابَها وسابقَ مَجدِها، ولم يَخطُر بِبالِهِ أنَّ هؤلاءِ الرَّائدينَ عن حِياضِ تركيا، والمجاهدينَ ضِدَّ أعدائها هم أنفسُهُم مَن سَيلغون الخلافةَ، فلماذا فعلوا ذلك؟! لِماذا وأدُوها؟ وما جَريرتُها لِيتخلَّصوا منها؟! والشّطرُ الأول منَ البيت الثَّالثِ هو معاتبةٌ صَادِقةٌ وإقرارٌ بحقيقةٍ لا يستطيع أن يُنكرها أشَدُّ هؤلاءِ كُرهاً للخلافةِ (هَتَكُوا بِأَيدِيهِم مُلاءَةَ فَخْرِهِم)، ما أجملَ هذه الاستعارةُ، وما أدلُّ هذا التَّصويرُ على حَطَأِ هؤلاء في حَقِّ أنفسِهِم وتاريخِهِم!! فالخلافةُ العثمانيّةُ هي أعظمُ ما خلّفَهُ الأتراكُ، وأزهى صَفحاتِ تاريخِهِم وأشرفُها على الإطلاقِ، فقد كانوا حُكّامَ الدُّنيا وسادَاتُها، فكيف لِمَن يَملُكُ هذه العظمةَ وتلكَ المكانةَ أنْ يتخلَّصَ مِنها بينَ عَشيَّةٍ وضُحَاها؟!.

ثُمَّ يَتَوَجَّهُ الشَّاعرُ إلى الغازي مصطفى كمال أتاتورك ذَاكِراً جِهادِهِ ضِدَّ أعدَاءِ تركيا ونجاح ثورةِ الأناضول وانتصاراته على اليونانِ وتحريره لِجَميعِ الأراضي التّركيَّةِ، فهذا من وجهةِ نظرِ الشَّاعرِ حقٌّ لا يُنكِرُهُ أحدٌ، ولكنَّهُ يَأخُذُ عليهِ قَرَارَهُ بِإلغاءِ الخلافةِ، ويَنصحُهُ بِضرورةِ العودَةِ عن هذا القَرارِ ويدعو الجَميعَ إلى تقديمِ النُّصحِ لِلغازي أتاتورك بالعودة عن قرارِهِ، يقول:

أَدُّوا إلى الغَازِي النَّصِيحَةَ يَنْتَصِحْ إنَّ الجَوَادَ يَثُوبُ بَعْدَ جِمَاحِ

ويختمُ أحمدُ شوقيّ قَصِيدَتَهُ مُستشْرِفاً عاقِبةَ سُقُوطِ الخِلافةِ، ونَاهِياً عن إعطاءِ الخلافةِ لِلشَّريفِ حُسين الذّي حَانَ الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ، وحارَبَ الجَيشَ الإسلاميَّ إلى جَانبِ المستَعْمِرِ الإنجليزيّ، ويُقدِّمُ شَوقيٌّ رُؤيَتَهُ المستَقْبليَّةَ عنِ الأخطارِ التي ستُحِيطُ بالأُمَّةِ الإسلاميَّةِ جَرَّاءَ سُقُوطِ الخلافةِ؛ فسيكثُرُ دُعاةُ الكُفرِ والضّلالِ لِتَحْوِيلِ المسلمينَ عن دِينِهِم، وسَيخرُجُ على الأُمَّةِ دُعاةُ الفِتنةِ والفُرقَةِ الذّين يُشتِّتُون جَمعَ الأُمَّةِ، ويُضعِفُون قُوَّتَها، وسيكون سِلاحُهُم في ذَلكَ هو المالُ والإرهابُ، أو الوَعدُ والوَعيدُ، وهو ما نراهُ مَاثِلاً مُجَسَّماً أمامَ أَعيُنِنا:

مَنْ قَـائلٌ لِلْمُسلِمِينَ مَقَـالَةً لَمْ يُوحِها غَيرُ النّصِيحةِ وَاحِ؟

عَـهْدُ الخِلافَةِ فِي أَوَّلِ زَائـدٍ عَنْ حَوضِها بِبَرَاعَةِ نَضَّـاحِ

حُـبٌّ لِذَاتِ اللهِ كَانَ ، ولَـمْ يَزَلْ وهَوًى لِذَاتِ الحَقِّ والإصلاحِ

لا تَبْذُلُوا بُرَدَ النَّبِيِّ لِعَـاجِزٍ غُزُلٍ ، يُدَافِعُ دُونَهُ بِالـرَّاحِ

بِالأَمْسِ أَوْهَى المسلِمِينَ جِرَاحَةً واليَومَ مَدَّ لَهُـم يـدَ الجَـرَّاحِ

فَلَتَسْمَعُنَّ بِكُلِّ أَرْضٍ دَاعِياً يَدْعُو إلى (الكَذَّابِ) أَو لِسَجَاحِ

ولَتَشْهَدُنَّ بِكُلِّ أَرْضٍ فِتْنَـةً فِيها يُبَاعُ الدِّينُ بَيعَ سَمَـاحِ

يُفْتِي عَلَى ذَهَـبِ المُعِزِّ وسَيفِهِ وهَوَى النُّفُوسِ، وحِقْدِها المِلْحَاحِ

وقد صَدَقت نُبُوءاتُ شَوقيّ، فقد خَرَجَ في كُلِّ بَلَدٍ إسلامِيٍّ آلافٌ مِن أمثالِ مُسَيلِمَة الكَذّابِ وسَجَاحِ وأتباعِهِم، وماجَتِ الفِتَنُ في أُمَّتِنا كَقِطَعِ اللَّيلِ المظْلِمَةِ، وبَاعَ المنافقون والفاسدون والمرتشون والخونةُ والعُملاءُ دِينَ اللهِ وشَرعَهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ وكانوا فيه مِنَ الزَّاهِدِينَ، وأصبحنا نَرَى عُلَمَاءَ السَّلاطِينِ المتَاجِرينَ بِدِينِ اللهِ يَفتُونَ بِغَيرِ ما أَنزَلَ اللهُ إرضاءً لِلحُكَّامِ وتَمَلُّقاً لَهم، وذلكَ حُبًّا في مَالِهِم أو خَوفاً مِن بَطْشِهِم.

ولم يَكُنْ الشّاعرُ أحمدُ مُحرّم أقَلَّ حُزناً وألماً من شَوقِيّ على سُقُوطِ الخلافةِ، فَنَرَاهُ يَنظِمُ قَصِيدةً (خطب الخلافة)[٥٢] إثرَ إعلانِ سُقُوطِ الخلافةِ، يُرثي فيها هذا المآلَ المؤلِمَ الذّي وصلت إليه الخلافةُ، ويستهِلُّها بِمُخاطَبَةِ الأستانةِ حاضرةِ الخلافةِ العثمانيّةِ، قائلاً:

أَعَنْ خَطْبِ الخِلافَةِ تَسْأَلِينا ... أَجِيبِي يَا فَرُوقُ فَتًى حَزِينا

هَوَى العَرْشُ الذّي استَعْصَمْتِ مِنهُ ... بِرُكْنِ الدَّهْرِ واستَعْلَيتِ حِينا

فَأَينَ البَأْسُ يَقْتَحِمُ المَنَايا ... وَيَلْتَهِمُ الكَتَائبَ والحُصُونا

وَأَينَ الجَاهُ يَعْمُرُ كُلَّ جَاهٍ ... وإنْ جَعَلَ السَّمَاكَ لَهُ سَفِينا

تَدَفَّقَ يَأْخُذُ الأَقْطَارَ طَرًّا ... وَيَنْتَظِمُ القَيَاصِرَ أَجْمَعِينا

مَضَى الخُلَفَاءُ عَنكِ فَأَينَ حَلُّوا؟ ... وَكَيفَ بَقيتِ وَحْدَكِ حَبّرِينا

ثُمَّ يَتَوَجَّهُ بالخِطَابِ إلى قَصْرِ يلدِزَ مَقَرِّ حُكمِ الخُلفاءِ العُثمانيينَ:

أَيِلْدِزُ مَا دَهَاكَ وَأَيُّ رَامٍ ... رَمَاكَ فَهَدَّ سُؤْدَدَكَ المَكِينا

خَفَضتَ لَهُ الجَنَاحَ وَكُنْتَ قِدَماً ... حِمَى الخُلَفَاءِ يَأْبَى أَنْ يَدِينا

وَجَلَّلَكَ الظَّلامُ وَكُنْتَ نُوراً ... يَفِيضُ عَلَى شُعُوبِ المُسْلِمِينا

ظَلَمْتُ هَوَاكَ أَنْتَ أَبَرُّ عَهْداً ... وَأَصْدَقُ ذِمَّةً وَأَجَلُّ دِينا

ثُمَّ يَعودُ بالخِطابِ إلى فروق"إسطنبول"فيستحثّها على مُدَاوَمةِ البكاء، وإقامةِ المآتِمِ المتواصِلةِ؛ فالمصابُ عظيمٌ والخطبُ جليلٌ، فقد فجعَ الدّهرُ الأستانةَ في رفيعِ مقامها وأعالي خصالِها، فأزالَ عنها مُؤسِّسي تاريخِها، ثُمَّ يَرثي محرّمُ الحكمَ العثماني، ويحزنُ لِما أصابهم، فقد أُجبِروا على تركِ الحكمِ،وطُرِدُوا من وطنهم، فأصبحوا مُشرّدينَ لاجئين، وهم مَن كانوا يَأوون اللّاجئينَ،ويُعِينُونَ المحتاجِينَ.

لَقَد فَجَعَ المُرُوءَةَ فِيكِ دَهْرٌ ... أَصَابَكِ فِي ذَوِيكِ الأَوَّلِينا

أَلَيسَ الدَّهْرُ كَانَ لَهُم لِسَاناً ... إذا نَطَقُوا وَكَانَ لَهُم يَمِينا

تَمَرَّدٌ يَنْفُضُ التّيجَانَ عَنهم ... وَيَنْتَزِعُ العُرُوشَ وَمَا وَلِينا

تَوَلَّوا فِي البِلادِ تَضِيقُ عَنهُم ... جَوَانِبُهَا وَكَانُوا المُوسِعِينا

إذا وَرَدُوا المَمَالِكَ أَنْكَرَتْهُم ... وَكَانُوا لِلْمَمَالِكِ مُنْكِرِينا

ويستمرُّ الشّاعرُ في مُواساةِ بَنِي عُثمانَ،، مُذَكِّراً لَهم أنَّ هذه المِحَن مِن سُنَنِ اللهِ وتَقديرِه، فالحياةُ لا تَسيرُ على وتيرةٍ واحدَةٍ، ثُمَّ يُبدِي الشّاعرُ كُرهَهُ لِلسِّياسَةِ فَهيَ مُتَقَلِّبَةٌ لا تعرفُ القِيمَ ولا المبادِئَ، فالسّياسةُ لُعبَةٌ لا ضَمِيرَ لها، ولا ثَوَابِتَ فيها، فهي تَدُوسُ تحتَ أقدَامِها كُلَّ الحُرُماتِ من أَجلِ تَحقِيقِ الأَهدَافِ الخَاصّةِ لأصحابِها، مُتَذرِّعةً بِأَعجَبِ الأعذَارِ، مُتَلَوِّنَةً تَلَوُّنَ الحِرْبَاءِ، مُتَخَفِّيةً في مُختلَفِ الأزياءِ:

[٥٢]– أحمد محرم، ديوان أحمد محرم، ج٢،ص٦٢٥

وَلَمْ أَرَ كَالسِّيَاسَةِ فِي أَذَاها ... وَفِي أَعْذَارِها تَزْجِي مِئِينا

تُغِيرُ عَلَى الأُسُودِ فَتَحْتَوِيها ... وَتَزْعُمُ أَنَّها تَحْمِي العَرِينا

تُرِيدُ فَتَخْلِقُ الأَصْبَاغَ شَتَّى ... وَتَبْتَدِعُ الطَّرَائقَ والفُنُونا

وَتَتَّخِذُ الدَّمَ المَسْفُوكَ وَرْداً ... تَظُنُّ دُعَافَهُ المَاءَ المُعِينا

أَدَاةُ الغَدْرِ مَا حَفِظَتْ ذِمَاماً ... وَلَا احتَرَمَتْ خَلِيطاً أَو قَرِينا

يُصَابُ بِها الشَّقِيُّ فَمَا يُبَالِي ... رَمْيَ الآبَاءِ أَمْ صَرْعَ البَنِينا

ثُمَّ يُطَالِبُ مِن بَنِي عُثمانَ التَحَلِّيَ بالصَّبرِ والتَّحصُّنَ بالإيمانِ، فهذِه أَقدارُ الملوكِ إذا انقلبت عليهم الدَّوائرُ، وهو يلتمِسُ العُذرَ لمصطفى كمال، ويدعو إلى عدمِ التَّعجُّلِ في الحُكمِ عَلَيهِ وعلى فعلِهِ، فالأمورُ لم تَستبِنْ بعدُ، ودوافعُه وخلفياتُهُ لم تَنكشفْ:

بَنِي عُثْمَانَ إنْ جَزَعاً فَحَقٌّ ... وَإنْ صَبْراً فَخَيرُ الصَّابِرِينا

أَعِدُّوا لِلنّوَائبِ مَا استَطَعْتُم ... مِنَ الإيمَانِ وادَّرِعُوا اليَقِينا

حَيَاةُ المُلْكِ ضَنَّ بِها أَبيٌّ ... يَخَافُ عَلَيهِ كَيدَ النَّاقِمِينا

لَهُ عُذْرُ الأَمِينِ فَإنْ رَضَيتُم ... فَخَيرُ النَّاسِ مَن عَذَرَ الأَمِينا

قَضَى الغَازِيُ الأُمُورَ فَلا تَعِيبُوا ... أُمُورَ المُلْكِ حَتَّى تَسْتَبِينا

ثُمَّ يَختمُ مُحَرِّمٌ قَصيدَتَهُ بِذِكرِ الأَسبابِ التي أَدّتْ إلى سُقُوطِ الخلافةِ، والتي تَمَثَّلتْ في الخِيانةِ وتَوَاطُؤِ بَعضِ أبناءِ الإسلامِ معَ الأَعداءِ، ويُعَزِّي نَفسَهُ، ويُواسي إخوانَهُ بأَنَّ الخلافةَ التي أُلغِيتْ كانَ أمرُها قد آلَ إلى أنْ تُصبحَ شَبَحاً مَهزُولاً ورَسماً مَحِيلاً، بعدَ أنْ طَعَنَها أبناؤها، وتخاذلوا عن نُصرَتِها، بل وتحالَفوا مع أعدائها كما فعلَ الشّريفُ حسينُ بنُ عليٍّ وصحبُه، فَمَكَروا بها، وطَعَنُوها في صَميمِها، يقولُ:

وَمَا نَفَعَ الخلافة حِينَ تُمْسِي ... حَدِيثَ خُرَافَةٍ لِلهَازِلِينا

ثَوَتْ تَتَجَرَّعُ الآلامَ شَتَّى ... عَلَى أَيدَي الدُّهَاةِ المَاكِرِينا

تَغِيثُ المُسْلِمِينَ إذَا استَغَاثُوا ... وَتَنْصُرُهُم عَلَى المُسْتَعْمِرِينا

فَلَمّا جَدَّ جِدُّ الحَرْبِ كَانُوا ... قُوَى الأَعْدَاءِ تَرْمِي النَّاصِرِينا

مَنَعْنَا الظُّلْمَ أَنْ يَطْغَى عَلَيهِم ... فَخَانُونا وَكَانُوا الظَّالِمِينا

نُصَابُ لِأَجْلِهِم وَنُصَابُ مِنهُم ... فَإنْ تَعْجَبْ فَذَلِكَ مَا لَقِينا

الخَاتِمَةُ: كَشَفت لنا الدِّرَاسَةُ مَجمُوعَةً مِنَ النَّتائج، ومن أَهَمّها ما يلي:

١- غَزَارةُ الشِّعرِ الذِي نُظِمَ في مُناصرَةِ الخِلافَةِ العثمانيّةِ، وهذا يُخالِفُ الادِّعاءَبِعَدَاوَةِ العربِ لِلخِلافَةِ العثمانيّةِ.

٢- مَثَّلتِ العَقِيدَةُ الإسلامِيّةُ المنطَلَقَ في مُناصَرَةِ الشُّعَرَاءِ المِصرِيينَ لِلخلافةِ العُثمانيّةِ وهو ماأَكسَبَ شِعرَهُم صِدقاً وحَرَارَةً.

٣- كَشَفَتِ الأشعَارُ عن رُقِيِّ المَفاهِيمِ الدِّينيّةِ عِندَ المِصريينَ، فقد سمت مَوَاقِفُهُم عَنِ المفاهِيم الضِّيقةِ لِلعِرقِ والمذهَبِ، وقَدَّمُوا مَصلَحَةَ الأُمَّةِ والجَمَاعةِ عَلَى أَيِّ مَصَالح أُخرى.

٤- تَطَوُّرُ فَنِّ الرِّثَاءِ، فَأصبَحَ الشَّاعرُ يُؤمِنُ بِقِيمَةِ كَلِمَتِهِ، وبِعِظَمِ دَورِهِ فِي مُجتَمَعِهِ، فهو لا يُرثِي إلّا مَن يَستَحِقُّ.

٥- ظَهَرَ تَأَثُّرُ الشُّعراءِ بالشِّعرِ العربِيِّ القَدِيمِ، فشِعرُهُم هُوَ حَلَقَةٌ مِنَ الشِّعرِ البَيتِيِّ القَدِيمِ، وقد ظهرَ ذلكَ من خِلالِ مُحَاكَاتِهِم وتَنَاصِّهِم لِقَصَائدِ وأشعار بَعضِ القُدَمَاءِ، وكَذَلِكَ فِي أَلفَاظِهِم، وصُوَرِهِم ومُوسِقَاهم.

المِصَادِرُ:

١- إبراهيم، حافظ، ديوان حافظ إبراهِيم، ضَبَطَهُ وصَحَّحَهُ وشَرَحَهُ وَرَتَّبَهُ، أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري، القاهرة، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، ٢٠٠٨م.

٢- بنُ المرجة، مُوفَّق، صَحوةُ الرَّجلِ المريضِ أو السُّلطانُ عبدالحميد الثَّاني والخِلافَةُ الإسلاميّة، الكويت، مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر، مطبعة ١٩٨٤م.

٣- الثَّاني، عبدالحميد ، مذكّرات السَّلطانُ عبدالحميد، تقديم وترجمة، محمد حرب، دمشق، دار القلم، الطَّبعة الثَّالثة، ١٩٩١م.

٤- حرب، محمد، السُّلطان عبدالحميد الثّاني آخرُ السَّلاطِينِ العُثمَانيينَ الكِبَار، دمشق، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

٥- حسين، محمد محمد ، الاتِّجَاهَاتُ الوَطَنِيَّةُ فِي الشِّعرِ المِصريِّ، القاهرة، مكتبة الآداب، الطَّبعة الثَّالثة، ١٩٨٠.

٦- رضا، محمد رشيد ، تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده، القاهرة، دار الفضيلة، الطّبعة الثّانية ٢٠٠٦م.

٧- شوقي، أحمد، الشَّوقيات، تقديم، محمد حسين هيكل، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٧٠م.

٨- الكَاشِفُ، أحمد، دِيوَانُ أحمد الكَاشِف، دِرَاسَةُ وتَحقِيقُ وتَعلِيقُ، محمد إبراهيم الجيوشي، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٨٧م.

٩- ضِيف، شوقي ، فُنُونُ الأدبِ العربِيّ الرّثاء، القاهرة، دار المعارف، الطَّبعة الرَّابعة.

١٠- عبدالمطَّلب، محمد، دِيَوانُ محمد عبدالمطلب، شرحُ وتصحيحُ، إبراهيم الإبياري، وعبدالحفيظ شلبي، القاهرة، مكتبة الاعتماد،د ت.

١١- فَرِيد، محمد ، تاريخ الدَّولة العليّة العثمانية، تحقيق، إحسان حَقّي، القاهرة، دار النفائس، الطّبعة الأولى، ١٩٨١م.

١٢- كامل،مصطفى ، المسألةُ الشَّرْقِيّةُ، القاهرة، مؤسسة هنداوي، مطبعة ٢٠١٤م.

١٣- محرّم، أحمد ، ديوان أحمد محرّم، السّياسيات، تحقيق، محمود أحمد محرم، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٩٨٤م.

١٤- النَّديم، السّيد عبدالله، سلافة النديم في مُنتخباتِ السَّيِّد عبدالله النَّديم،جمعُ شَقيقِهِ، عبدالفتّاحِ النَّديم، القاهرة، مطبعة الجامعة، ١٨٩٧م.

Kaynakça

Hafiz, İbrahim. *Dîvân-i Hafiz* İbrahim, Haz. Ahmet Emin, Ahmet ez-Zeyn, İbrahim el-İbyârî, Kahire: el-Hey'etu'l-Misriyyetu'l-'Âmmetu li'l-Kuttâb, 2008.

İbnu'l-Merce, Muveffek. Sahvetu'r-Reculi'l-Merîd evi's-Sultânu Abdulhamit e's-Sânî ve'l-Hilâfetu'l-İslâmiyyetu. Küveyt: Mü'essisetu Sakr el-Halîç 1984.

es-Sânî Abdulhamit. Müzekkirâtu's-Sultâni Abdilhamit, Çev. Muhammed Harb. 3. Baskı. Şam: Dâru'l-Kalem, 1991.

Harb, Muhammed. es-Sultân Abdulhamit es-Sânî Âhiru's-Selâtini'l-Usmâniyyîne'l-Kibâr. 1.Baskı. Şam: Daru'l-Kalem, 1990.

Hasen, Muhammed Muhammed. el-İtticâhâtu'l-Veteniyyetu fi'ş-Şi'ri'l-Misriy. 3. Baskı. Kahire: Mektebetu'l-Âdâb, 1980.

Rıza, Muhammed Reşit, Târîhu'l-Ustâzi'l-İmami Muhammed Abduh. 2. Baskı. Kahire: Daru'l-Fedîleti, 2006.

Şevkî, Ahmet, eş-Şevkiyât. Haz. Muhammed Hüseyin Heykel. Kahire: el-Mektebetu't-Ticâriyyetu'l-Kübra, 1970.

el-Kâşif, Ahmet, Dîvânu Ahmet el-Kâşif. Haz. Muhammed İbrahim el-Cuyûşî. Kahire: el-Hey'etu'l-Misriyyetu'l-'Âmmetu li'l-Kuttâb, 1987.

Zîf, Şevkî. Funûnu'l-Edebi'l-Arabiyyi'r-Resâil. 4. Baskı. Kahire: Dâru'l-Me'ârif.

Abdulmuttalib, Muhammed. Dîvân Muhammed Abdulmuttalib. Haz. İbrahim el-İbyârî ve Abdulhafîz Şelebî. Kahire: Mektebetu'l-İ'timâdât.

Ferîd, Muhammed, Tarihu'd-Devleti'l-'Eliyyeti'l-Usmaniyye, Tahk. İhsan Hakkî. 1. Baskı. Kahire: Dâru'n-Nefâis, 1981.

Kâmil, Mustafa. el-Mes'eletu'ş-Şerkiyyetu. Kahire: Mu'essisetu Hindâvî, 2014.

Muharrem, Ahmet. Dîvân Ahmet Muharrem, es-Siyâsiyât, Tahk. Mahmud Ahmet Muhammed. Küveyt: Mektebetu'l-Felâh, 1984.

en-Nedîm, es-Seyyid Abdullah. Selâfetu'n-Nedîm fî Müntehebâti's-Seyyid Abdillah en-Nadîm.Kahire: Üniversite Yayınevi, 1897.